منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (2526) السنة التاسعة - الاربعاء (4) تموز 2012

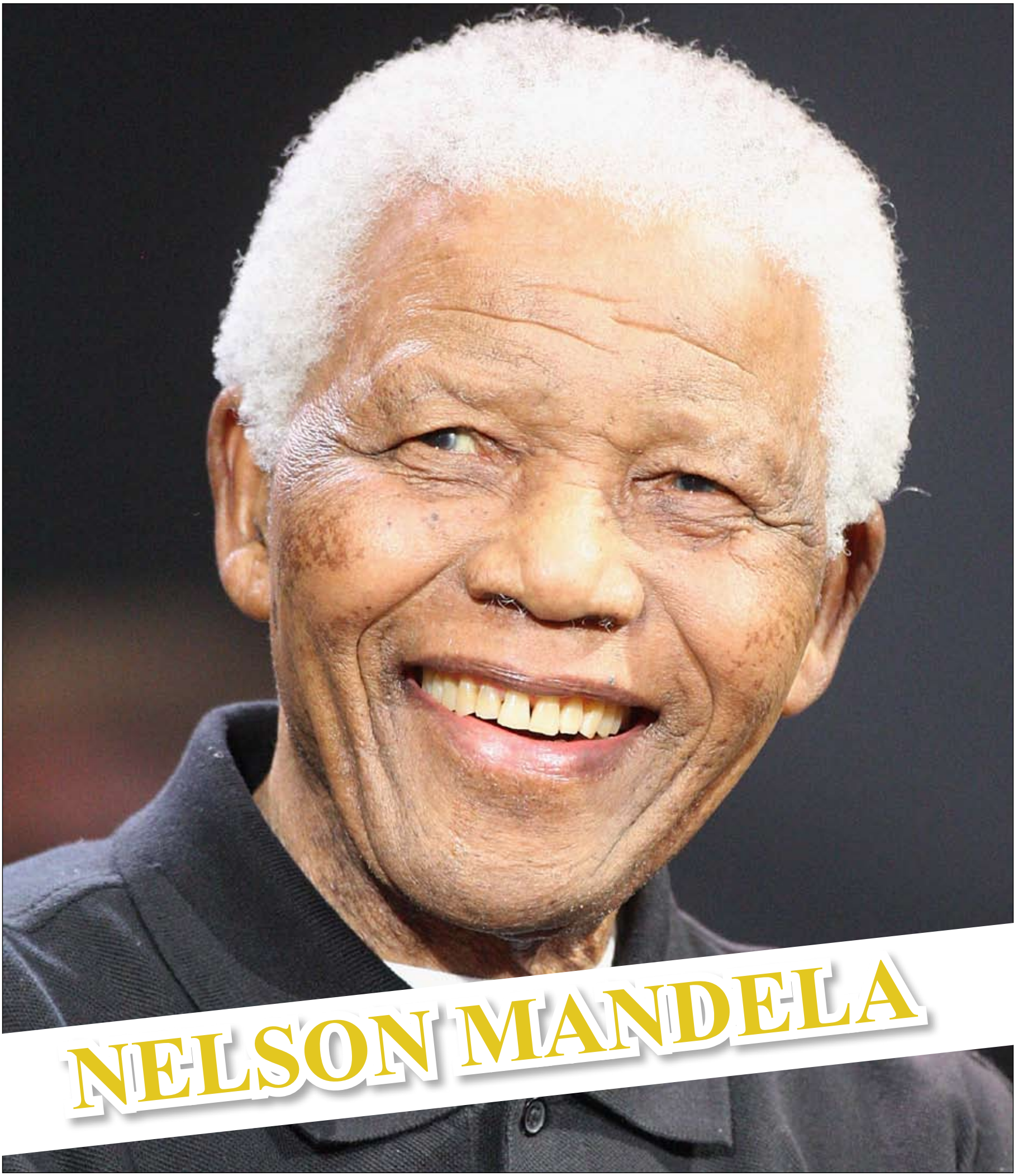

NELSON MANDELA

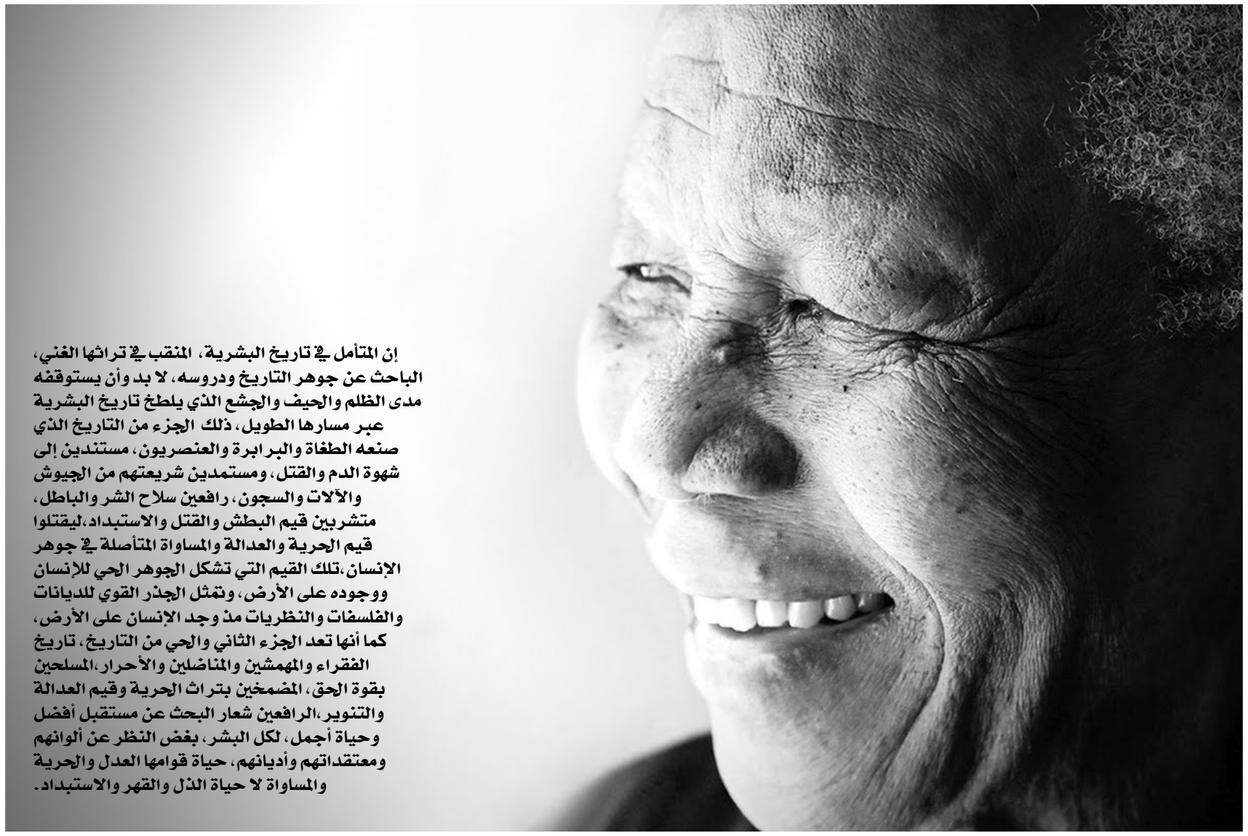

إن المتأمل في تاريخ البشرية، المنقب في تراثها الغني، الباحث عن جوهر التاريخ ودروسه، لا بد وأن يستوقفه مدى الظلم والحيف والجشع الذي يلطخ تاريخ البشرية عبر مسارها الطويل، ذلك الجزء من التاريخ الذي صنعه الطغاة والبرابرة والعنصريون، مستندين إلى شهوة الدم والقتل، ومستمدين شريعتهم من الجيوش والآلات والسجون، رافعين سلاح الشر والباطل، متشربين قيم البطش والقتل والاستبداد، ليقتلوا قيم الحرية والعدالة والمساواة المتأصلة في جوهر الإنسان، تلك القيم التي تشكل الجوهر الحي للإنسان ووجوده على الأرض، وتمثل الجذر القوي للديانات والفلسفات والنظريات منذ وجد الإنسان على الأرض، كما أنها تعد الجزء الثاني والحي من التاريخ، تاريخ الفقراء والمهمشين والمناضلين والأحرار، المسلحين بقوة الحق، المضمخين بتراث الحرية وقيم العدالة والتنوير، الرافعين شعار البحث عن مستقبل أفضل وحياة أجمل، لكل البشر، بغض النظر عن ألوانهم ومعتقداتهم وأديانهم، حياة قوامها العدل والحرية والمساواة لا حياة الذل والقهر والاستبداد.

نيلسون مانديلا.. مسيرة طويلة نحو الحرية

وما تاريخ الإنسان عبر مساره الطويل، إلا تاريخ النضال المسلح بقوة الأمل من أجل الوصول إلى الحرية، تلك الكلمة السحرية التي سقط الكثير من المناضلين على دروبها من أجل أن يحيا الإنسان حراً كريما. ولكل أمة من أمم الأرض أبطالها وأحرارها الذين غدوا مثلا وقدوة للأحرار على مدى التاريخ البشري، منهم من ضحى بدمه ليروي شجرة الحرية،ومنهم من غيبته السجون سنيناً طوال، ومنهم من عرفته شوارع المنافي والجبال والغربة، بدءا من سقراط وتجرعه سم الحرية،إلى ابن عربي والحلاج اللذين استشهدا لتحيا حرية الكلمة، إلى أبطال الثورة الفرنسية، إلى لينين الذي قاد ثورة اكتوبر، وغاندي وباتريس لومومبا وماو تسي تونغ، ونلسون مانديلا (زهرة الربيع السوداء) التي توجت تاريخ القرن العشرين بأعظم مثال عن صراع الإنسان ونضاله من أجل الحرية، بعد نضال دام نصف قرن، أمضى منها سبعة وعشرين عاما داخل السجن، ليزيح واحدة من أسوأ النقاط السود التي لطخت تاريخ البشرية، نظام التفرقة العنصرية الذي حكم جنوب افريقيا لمدة ثلاثة قرون،ذلك البلد الغني بثرواته ومناجمه وطبيعته الذي ربما بدأت مشاكله منذ رأى البحارة البرتغاليون صخور رأس الرجاء الصالح التي تقسم المياه إلى محيطين هما المحيط الأطلنطي والهندي، حين هتف قائد الأسطول (بارتلو لميو دياز):

– (إنه أروع مشهد يمكن أن يراه بشر).

بعد سفينة دياز بعشرة أعوام، سلك فاسكو داجاما الطريق نفسه، وهو يبحث عن ممر آمن يقوده إلى الهند، ولم تكتشف أهميتها إلا في القرن السادس عشر أثناء الصراع الإنكليزي الهولندي من أجل السيطرة على بحار العالم، حين هبط جان فان رابيك عام ١٦٢٥ إلى الشاطئ، ليشرف على إقامة مزارع للمستوطنين الهولنديين الذين بدأ عددهم يزيد بعد انضمام أعداد من المتشددين الدينيين من ألمانيا وفرنسا، باحثين عن أرض بكر وخصبة، فبدؤوا بالابتعاد عن الساحل والتوغل في عمق الغابات ولم يكن معهم إلا العربات الخشبية التي تجرها الخيول، وبعض البنادق إضافة إلى الإنجيل،كانوا متطهرين وقساة، لا يترددون في إطلاق النار بلا رحمة على القبائل البدائية التي كانت تجرؤ على الظهور في طريقهم.

وفي عام ١٩٥٧ قررت بريطانيا امتلاك (كاب تاون) حتى تقطع على فرنسا الطريق إلى الهند، وقد استغرق ذلك مدة طويلة ومقاومة شرسة من البوير الأفريكانيين أصحاب، العربات الذين عبروا نهر البرتقال، وأسسوا أربع جمهوريات قصيرة العمر انتهت بتكوين جمهورية جنوب افريقية بعد توقيع معاهدة سلام بين البريطانيين والأفريكان،معاهدة لم تعترف إلا بحقوق البيض فقط وتركت ٨٠بالمئة من سكان البلاد والملونين، لم تعطهم أية حقوق سياسية ولم تحررهم من العبودية مم أثار موجة كبيرة من الإحباط لدى السود والملونين، الأمر الذي ساهم بإيقاظ الوعي الأسود وخاصة مع تزايد عدد عمال المناجم،الذين أصبحت جنوب أفريقيا بسببهم تنتج ثلث ذهب العالم وهنا بدأت الحركات والأحزاب السياسية الأفريقية بالتكون لتحمل لواء النضال من أجل الحرية ومنها حزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي تأسس عام ١٩١٢ (قبل ٦ سنوات من ولادة مانديلا) على يد جون دوبي، وهو الحزب الذي سينتسب إليه مانديلا بعد أكثر من ربع قرن لمواصلة نضال أسلافه من أجل الحرية، ليتداخل تاريخ بلاده مع تاريخه الشخصي، وليغدو جزءا من تاريخ البشرية (فتاريخ حياته جزء من التاريخ العام الذي دخله بالجلد والتواضع وإعلاء الروح الإنسانية).

فكتابه (رحلتي الطويلة من أجل الحرية)، تاريخ يتقاطع مع التاريخ العام ويتوازى مع المحطات الكبرى التي مرت بها جنوب أفريقيا، بدءا من عام ولادته ١٩١٨ (السنة التي زار فيها وفد عن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي مؤتمر فرساي للسلام لطرح مظالم الشعب الأفريقي في جنوب أفريقيا)، إلى تاريخ إقليم ترانسكاي، وقبائل الكوسا ونسبها، إلى جوهانسبيرغ، وبريتوريا، وجزيرة روبن التي تحولت إلى مزار سياحي، بعد أن كانت منفى للصابين بالجذام، ثم منفى لأحرار جنوب شرق آسيا، ثم أصبحت سجنا طويل الأمد لكل السود الحالمين بغد مشرق،إضافة إلى تاريخ المؤتمر الوطني الأفريقي، وولادة إمكا (رمح الأمة) وكلها محطات مهمة في تاريخ جنوب افريقيا ونيلسون مانديلا معا، حيث يتوازى الشخصي مع العام والذاتي مع الموضوعي، ليتوحدا في مشروع واحد، قوامه النضال من أجل الحرية والعدالة وهنا النقطة الأهم التي تميّز بها القائد الكبير مانديلا فهو لم يعد نفسه جسماً منفصلاً عن التاريخ أو نيزكا شاردا عن الشعب،بل يؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأنه ابن لهذا الشعب العظيم الذي استمر نضاله ثلاثة قرون. وما نضاله الشخصي إلا استكمالا لنضال الرجال الذين سبقوه والذين سمع عنهم في طفولته أبطال الكوسا العظام من أمثال شاكا وماكوما وماكانا حيث يقول: (بينما كان والدي يروي لنا قصص المعارك التاريخية وبطولات قدماء المحاربين من أبناء الكوسا كانت أمي تتغنى بأساطير الكوسا وملاحمهم وأساطيرهم التي تعود إلى أجيال غابرة، وكانت تلك القصص تثير خيالي الغض لما كانت تحمله من مغاز عميقة ومتنوعة).

كما أن نضاله ليس سوى استمرار لنضال أبيه الذي وقف في وجه الحاكم الذي طلب حضوره بسبب خلاف على الماشية قائلا:

(ـــ لن أحضر لأنني أتوشح سيفي استعدادا للمعركة) أراد والدي بجوابه ذاك أن يبيّن أنه ليس للحاكم المحلي سلطان شرعي عليه وبأنه في الشؤون القبيلة لا يلتزم بقوانين ملك إنكلترا ولكن بتقاليد التيمبو وأعرافهم.

في الوقت الذي التزم والده بتقاليد التيمبو فقط،وسّع مانديلا التزاماته لتشمل جنوب أفريقيا بكاملها منصتاً لآمالها، ومتطلعاً إلى تخليص شعبها، بيضاً وسوداً، من كل عذاباتهم، آخذاً بيدهم نحو العدل والمساواة، ساعياً لتحقيق ديموقراطية تعلم أولى أبجدياتها، منذ كان طفلا في المكان العظيم عندما كان يتم الاجتماع لمناقشة مشاكل الإقليم.

ولعل أهم ما يميز مانديلا ذلك التواضع الجم الذي يميز مسيرته، فهو لا يدّعي العلم بكل شيء بل يتعلم من كل ما يصادفه في حياته درساً ما،يضيفه إلى تجاربه وعلومه، فهو يتعلم من السجن والحياة والخصم والسجان والرؤساء والكتب بل نراه في صباه يتعلم حتى من الحمار إذ يقول بتواضع: (وبعد أن أهانني الحمار أدركت أن إهانة الآخرين معاناة لا داعي لها وتعلمت منذ صغري أن أنتصر على خصومي ولكن من دون الإساءة الى كراماتهم).

ونراه يتعلم من الحب عندما أحب ديدي التي تعمل خادمة في البيوت، وهي حبه الثالث فيقول بعد أن يتردد في إعلامها بحبه: (إن التعقل في السياسة فضيلة، ولكن ليس كذلك في الحب) إن ذلك النهم للمعرفة والتعلم من كل شيء هو الذي سيطبع شخصيته، ويجعل منه قائداً مرناً قابلاً للتكيف مع الظروف والمعاناة، وسيجعل منه إنساناً مقارعاً للظلم مناضلاً من أجل إعطاء كل ذي حق حقه، وفياً مع الآخرين ومع ذاته، عصامياً، محاوراً، مدافعاً عن حقوق الآخرين ولو كانوا خصوماً،فنراه في سيرته الذاتية لا يدّعي البطولة لوحده بل يسرد أسماء كل الذين ناضلوا الى جانبه وقتلوا في سبيل قضيتهم، ولا يتورع عن الإشادة بمن كان لهم فضل كبير في النضال بل ويعتبر إن الكثيرين أفضل منه ولعل أفضل اللحظات نبلاً وإنسانية ووفاء عندما تخبره زوجته ويني خبر وفاة المحامي برام فيشر، فيصفه بكلمات ملؤها الألم والخشوع: (كانت اللحظة الوحيدة المحزنة في تلك الزيارة عندما أخبرتني ويني بوفاة برام فيشر متأثرا بمرض السرطان (.....) كان برام نقي المذهب وقرر بعد محاكمة ريفونيا أن العمل السري هو أفضل وسيلة يخدم بها النضال (.....) لم يكن برام ليطالب غيره بتضحيات لم يكن هو شخصيا مستعدا لتقديمها (.....) مهما عانيت أنا في سبيل الحرية فقد كنت أستمد قوتي من أنني أناضل الى جانب قومي ومن أجلهم أما برام فقد كان إنسانا حرا حارب قومه لضمان حرية الآخرين)

ولم يكتف مانديلا بذلك بل كان دائم الإيمان والبحث عن الحقيقة حتى لو كانت موجودة لدى خصومه أو حلفائه، فيعترف بها ويؤيدها ويتبناها أحياناً، فنراه يقول عند نجاح إضراب الهنود عام ١٩٦٤: (ما سجله المواطنون الهنود من احتجاج رائع ضد الاضطهاد العنصري أفضل بكثير مما قام به الافريقيون أنفسهم من خلال المؤتمر الوطني الافريقي)

القرار الشجاع ونكران الذات

أكثر ما يميز مانديلا هو ذلك الحس التاريخي المرهف باللحظة التاريخية التي ينبغي فيها على القائد أن يتخذ فيها قراره بتغيير طريقة النضال لإيمانه بأن حرية الشعب معلّقة عليه ولأن القائد يستطيع من تجاربه أن يقرأ الواقع بدقه محللاً معطياته، وقارئاً متغيراته ومستشرفاً ما يجب أن يكون، وهذا ما نراه في عدة محطات تاريخية هامة ومفصلية في حياة مانديلا وتاريخ جنوب أفريقيا، فعند انتهاء الحرب العالمية الثانية فاز الحزب القومي الأبيض بانتخابات ١٩٤٩ على أساس إقرار قوانين التفرقة العنصرية، وقد حرمت هذه القوانين الزواج المختلط والسكن في أماكن واحدة، وأكدت على فصل كل أنواع الخدمات، حتى إن التصريح بدخول المدن الكبرى لم يكن يتم إلا بتصريح خاص وإذا وجد أسود في الشارع بعد الساعة الخامسة يطلق عليه النار فورا في هذه اللحظة التاريخية، لم يعد النضال السلمي مجديا، وأصبح عديم الفاعلية ولابد من اتخاذ قرار جريء بتغيير أسلوب النضال وإتباع أسلوب العنف المسلح، بدل البلا عنف الذي تبناه الزعيم الهندي غاندي في الهند، ولكن المشكلة أن حزب المؤتمر الوطني الافريقي، هو حزب لا يؤمن بالكفاح المسلح، فلابد من تغيير جوهري في الحزب، وهذا ما يقرره مانديلا مع عدد من أصدقائه باتخاذ القرار التاريخي الشجاع بإحداث منظمة إمكا (رمح الأمة) ذلك القرار الذي سيغير تاريخ جنوب

◄

أفريقيا بعد نصف قرن من اتخاذه.

واللافت هنا وعي مانديلا الحقيقي للتاريخ والواقع، ورمالهما المتحركة، فهو لا يتعصب لقرار ما أو رأي أو فكرة، فهو يدرك جيدا أن لكل مرحلة تاريخية أساليب نضالها المختلفة حيث لايركن لصحة قرار ما اتخذه، بل يبقى يتفحصه ويعيد النظر به ليتأكد من مدى استمرارية صوابه وجدواه، وإذا ما رأى أنه استنفذ الجدوى منه يتخلى عنه دون أسف أو ندم، فبعد خمس وثلاثين عاما من الكفاح المسلح نجده عام ١٩٨٥ في سجن بو للسمور، يعيد النظر في أسلوب الكفاح المسلح قائلا: (حاربنا حكم الأقلية البيضاء ثلاثة أرباع قرن، وخضنا النضال المسلح لأكثر من عقدين من الزمن،أزهقت أرواح كثيرة من الطرفين، وظل العدو محافظا على قوته وتصميمه (.....) فالحق في صفنا ولكننا لا نملك القوة بعد، وأصبح واضحا في ذهني أن النصر العسكري حلم بعيد إن لم يكن مستحيلا، والواقع أنه لم يعد من الحكمة أو المعقول أن يستمر الطرفان في فقدان آلاف — إن لم نقل ملايين — الأرواح في حرب لا ضرورة لها)

وهنا يتخذ قراره الشجاع الثاني بالحوار مع العدو، لإيمانه العميق بأن ذلك لمصلحة شعبه وبلده متجاوزا قرار الحزب وأصدقائه لإيمانه العميق بأن مصلحة الوطن والشعب أعلى من مصلحة الحزب والعائلة والقبيلة وكثيرا ما وقف مانديلا موقفا محايدا لغير مصلحة حزبه أو أهله أو رفقاء سجنه فعندما كان في جزيرة روبن حصل صراع سياسي بين سجناء القسم العام ونشبت منازعات بين أعضاء المؤتمر الوطني الافريقي والقومي الافريقي وحركة الوعي بالهوية السوداء وتعرض عدد من أعضاء حزبه للضرب ورفعت دعاوى وطلب منه أن يكون شاهد تزكيه في ما يتعلق في سلوك المتهمين ففضل الوقوف على الحياد من أجل وحدة النضال التي يؤمن بها إذ يقول: (فإذا كنت أدعو الى الوحدة فيجب عليّ أن أتصرف كرجل يؤمن بالوحدة ولو كان ذلك على حساب علاقتي ببعض زملائي من داخل الحزب)

كذلك الأمر عندما يصل الخلاف بينه وبين زوجته الأولى ايفلين الى ذروته، وتخيره بين أسرته ونضاله السياسي فيختار النضال، ليس لأنه يريد أن يضحي بأسرته وأولاده بل لأنه يدرك أن لا معنى لحياته وحياة أولاده في ظل نظام عنصري لا يعترف بأبسط أسس الحياة البشرية،وذلك رغم قساوة هذا القرار على وجدانه وقلبه ومشاعره، كأب إذ نراه يصف الأمر بكلمات تتقطر حزنا وألما: (كان لنهاية زواجي أثر مؤلم خاصة على الأطفال وخلف في نفوسهم جروحا عميقة (.....) كان موقفا في غاية الألم والقسوة)

ومما لاشك فيه أن هذه المواقف لا يتخذها إلا رجل عشق الحرية، وعرف عذابات شعبه وذاقها وأدرك أن لا معنى للحياة بدون الحرية، لذا كانت معاناته تزداد مع معاناة أهله وأحبائه وفقرهم وعملهم في الأرياف والمناجم وخاصة في مدينة جوهانسبيرغ (إيغولي) مدينة الذهب وسميت بهذا الاسم لأن الصخور التي رصفت شوارعها كانت من منجم (كراون) أغنى منجم على وجه الأرض، ولا يبتعد هذا الوصف عن الحقيقة، فالأحجار الصماء مليئة بشذرات الذهب الذي اكتشف عام ١٨٨٦ عندما(وجد مستكشف استرالي قطعة من الصخر توجد فيها آثار من الذهب وكان شديد الإفلاس لدرجة أنه باع اكتشافه بالمكان الذي وجد فيه هذه الصخرة بعشرة جنيهات استرليني فقط ولم يدر بأنه بهذا الثمن البخس قد باع سلسلة من الصخور تحتوي على أغنى عرق ذهب في العالم).

لم يكن اهتمام مانديلا بالحب والحياة عن عبث، بل لأنه كان يدرك تمام الإدراك بأن معركته مع عدوه هي معركة إنسانية وأخلاقية بالدرجة الأولى

وخلال شهور قليلة تدفق على المنطقة آلاف الحاربين والأفاقين والقساوسة، كلهم جاؤوا يركبون العربات التي تجرها الخيول ومنها اكتسبوا اسمهم، فكلمة البوير تعني باللولندية راكبو العربات، هؤلاء الرجال ذوي الفكر العنصري الذي كان ضحيته السكان الأصليين الذين كان مانديلا واحدا منهم، تلك العنصرية الجائرة التي جعلت منه رجلا شرسا في دفاعه عن الحرية منذ ولادته وطفولته وصباه، إذ كان ميالا منذ البدء إلى رفض كل ما يمس حريته بتقييد حتى لو كان من قومه فنراه عندما كان في المكان العظيم مكيكزويني، واختار له السلطان يونجينابا زوجة دون رأيه، نراه يهرب تاركا السلطان ومكتسباته وحياته المريحة ولم يكن الأمر برأيي مجرد هروب من الزواج، بقدر ما كان دفاع عن الحرية التي سيسلبها منه هذا الزواج. وكذلك الأمر في فورت هير ١٩٦٠ عندما قرر مع رفاقه مقاطعة الانتخابات الطلابية ما لم يتم زيادة صلاحيات المجلس الطلابي، فيتم انتخابه للمجلس دون علمه، فيستقيل ثم يتم انتخابه مرة ثانية فيستقيل لوحده هذه المرة، وعندما يواجه الدكتور كير يقول له:(لا أستطيع أن أرضي ضميري بالاحتفاظ بعضوية المجلس الطلابي)

وبشأن نفس الأمر يكتب: (وجدت من الصعب القبول بفكرة أن أضحي بما أراه التزاما مني نحو الطلاب لمجرد إرضاء مصلحتي الشخصية)هذا الإيثار الذي تميز به مانديلا وهذه الروح المقاومة،التي انتمت إلى مصالح الشعب والمهمشين هي نفسها التي ستبقى معه ويخوض غمار النضال متسلحا بها لمواجهة خصمه، مترفعا عن مصالحه الشخصية وذاته في سبيل حرية الآخرين، سنراه داخل السجن صلبا لا يلين، مؤمنا بقوة الخير في البشر، متاورا السجانين ومحاورا لهم في أن ولكن من دون أن يضحي أو يساوم على مبدأ الحرية.

ولعل قمة إيثاره وتضحيته تتجلى عندما الأمر الذي يكشف عن استعداده لإطلاق سراحه من السجن شرط أن يتخلى عن الكفاح المسلح، نجده يرفض ذلك قائلا في الخطاب الذي ألقته نيابة عنه ابنته زندزي،مسجلا بذلك أروع السطور وأجمل آيات النضال التي قيلت في الحرية على مدى تاريخ البشر: (ماذا تعني تلك الحرية التي يعرضونها علي إذا ظل حزبي كالشعب محظورا؟ وماذا تعني تلك الحرية التي سأعيش بمقتضاها مع أسرتي وما تزال زوجتي مبعدة.... وعليه فلن أتعهد بشيء مادمت لا أملك حريتي ومادمتم أنتم يا أبناء هذا الشعب لا تملكون حريتكم، فحريتكم هي حريتي ولا يمكن الفصل بينهما. إنني عائد) وهنا نرى أقصى مراحل نكران الذات التي تميز هذا القائد العظيم، فهو رغم العذاب والسجن والنفي والمعاناة الطويلة يرفض أن يتنازل عن أي جزء من حريته لإيمانه العميق بأن الحرية لا تتجزأ.

تفاصيل لا بد منها

يظن المرء للوهلة الأولى أن هذا المناضل، لم يكن يشغله سوى النضال والحرية والقضايا الكبرى والعمل المسلح ومعاناة شعبه، ولكن ما يفاجئنا به مانديلا أن تلك القضايا رغم أهميتها لم تكن تشغله عن تفاصيل الحياة اليومية المتعلقة بالأسرة والأهل والأولاد والأم والحبيبة،إذ نراه عاشقا ممتازا حيث تزوج ثلاث مرات ونراه أبا حنونا دائم التفكير بأولاده وأمه وأهله وقبيلته ومسقط رأسه، يفكر بهم أثناء النضال وخلال فترة التخفي وخلال سنوات السجن الطويلة، الرفيع، كذلك الأمر من حيث اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا لمقاومة الظلم والطغيان،رغم أن مانديلا كان في البداية متماهيا مع أسلوب اللا عنف الذي اتخذه غاندي في الهند أسلوبا لنضاله ولكن غاندي يتشابه مع مانديلا في السمو الروحي والأخلاقي الذي كان سمة نضالهما من أجل الحرية، وتمثل ذلك في الإيمان العميق بجوهر الخير في الإنسان، والنظرة الإنسانية لا العدوانية للخصم، والإيمان بالحب كقيمة مشتركة وعليا للبشر والعمل على توحيد نضال الجميع بما يخدم الجميع، ونراه يتشابه مع فيدل كاسترو في وصول كل منهما إلى سدة الرئاسة، بعد محاكمات وسجن ونفي ونضال مرير، رغم أن كاسترو سيبقى في الرئاسة، بينما مانديلا سيعزف عنها بعد أن حاول جهده في فترة رئاسته ليرسي أسس الوحدة الوطنية، ويزلل الخلافات ويضع وطنه على سكة الحرية، ثم يستقيل ليتفرغ لحياته الطبيعية كإنسان عادي لا كأسطورة، فنراه يجيب بعد أن سئل عما سيفعله بعد تقاعده:

(سأفعل كل الأشياء التي فاتتني: أن أكون مع أولادي وأحفادي وعائلتي وأجلس وأقرأ ما أود قراءته، إن قضاء سبعة وعشرين عام في السجن هو مأساة إلا أن إحدى فوائده كانت إمكانية الجلوس والتفكير وهذا احد الأمور التي أفتقدها كثيرا)

عن كتاب/ مسيرة نحو الحرية (سيرة مانديلا)

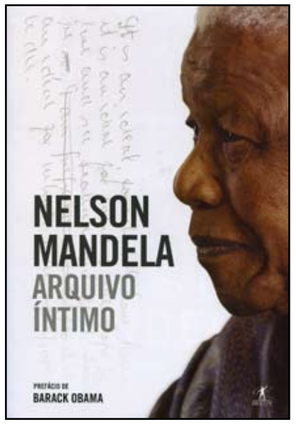

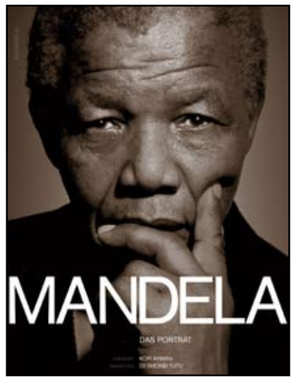

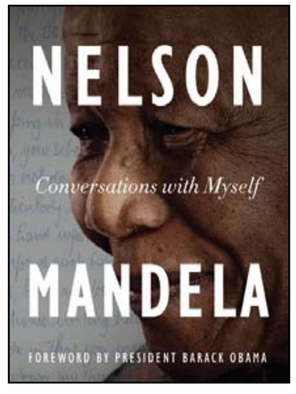

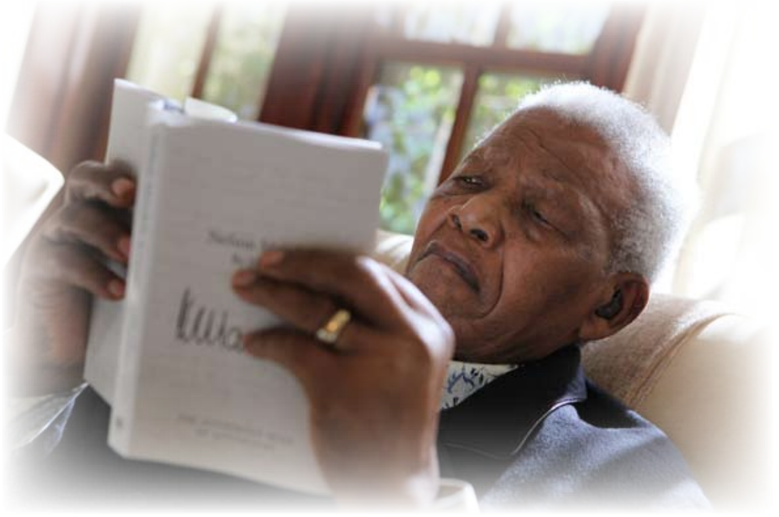

الأفريقي الساحر.. نيلسون مانديلا

أحمد فاضل

هذا العام أربعة كتب تصدرت واجهات المكتبات في أنحاء أوروبا وأمريكا ودول القارة السمراء تحكي عن ظاهرة تغيرت بسببها أعراف وقوانين ظلت سائدة في تلك القارة لقرون عديدة. الكتاب الأول حمل عنوان "مانديلا السحر" تأليف أليك راسيل.

أما الثاني فهو "شباب مانديلا" لديفيد جيمس سميث ويدينفليد ويلكنسون، أما الكتاب الثالث فهو "مانديلا.. السيرة الذاتية" لمارتن ميريديث وسايمون أند شوستر، والكتاب الرابع والأخير الذي حاز على إعجاب القارئ الأمريكي وسجل أعلى المبيعات هناك فهو "طريق مانديلا.. دروس في الحياة" لريتشارد ستنجل".

سبعة وعشرون عاما هي مدة حبسه في سجن جزيرة روبن كانت كافية أن ترد السلطات العنصرية في أفريقيا الجنوبية عن غيّها وتطلق سراحه مرغمة بفضل صلابته ومناصرة الخيرين له في أنحاء العالم حتى أصبح هذا المناضل أحد الرموز الوطنية والمثل الذي يحتذى به خاصة في أفريقيا القارة الأغنى في العالم من حيث موادها والأفقر بين شعوب الأرض.

جرى تشجيع هذا الرجل العظيم من قبل رفاقه لكتابة مذكراته خلال الليالي الطوال التي قضاها في ذلك السجن الرهيب، وأفرج عن ذلك الكتاب في عيد ميلاده الـ ٦٠ عام ١٩٨٧ وقد قال عنه انه كان يكتب ذلك الكتاب في الخفاء ليلا قبل أن تهرّب مسوداته من قبل مساعديه، وقد علق عليه مالك مهاراج وهو واحد من اقرب المقربين إليه طارحا فكرة اختفاء الحيوية على النص مع مزيد من التفاصيل الشخصية وحتى العاطفية مرورا بتفتت زواجه الأول وعلاقته بزوجته الثانية ويني مانديلا.

مهاراج ذاك أطلق سراحه قبل مانديلا فحمل معه نسخة من مخطوطة المذكرات تلك التي عرضها بدوره على ريتشارد ستنجل الصحفي الأمريكي الذي عاش لسنوات في أفريقيا الجنوبية يكتب لمجلة التايم والذي أصبح رئيسا لتحريرها في ما بعد، تقارير وتحليلات عن الواقع السياسي والاضطهاد الذي يعاني منه شعب تلك البقعة نتيجة لحكم البيض العنصري لها، ستنجل جعل من هذه المذكرات قابلة للقراءة بعد أن كانت مشروعا يشوبها الكثير من الفوضى، فأضفى عليها تفاصيل أخرى عن كفاح مانديلا منذ الاضطرابات الداخلية لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي عام ١٩٥٠ والتي أدت إلى القرار المثير بالتخلي عن الاحتجاجات غير العنيفة واعتماد الكفاح المسلح، هذا النص كان أحد الأسباب التي أدت إلى إطلاق سراحه من السجن، المذكرات أصبحت في وقت لاحق من أفضل السلاسل الجديدة بين نهر كبير متدفق من الكتب التي تبحث في حياة ونضال مانديلا.

رافق ستنجل مانديلا بعد إطلاق سراحه ما يقرب من ثلاث سنوات بداية عام ١٩٩٠ فزار معه قريته الريفية التي أضحت شبحا بعد أن تركها تنعم بالخيرات ومع استئناده إلى مئات الساعات من المقابلات فهذا يظهر بوضوح انه يعشق صاحب المذكرات، فقد سافر معه وأكلا سوية فتمخضت المذكرات عن ٢٣٠ صفحة إضافية واتضح له إن مانديلا ليس سياسيا فحسب بل يكاد يكون براغماتيا وليس قديسا ولا يشبه حتى غاندي بشيء.

هناك حكايات جديدة أضافها ستنجل لاسيما ما يتعلق منها بجزيرة روبن وكيف وقف مانديلا بوجه حراسه هناك، أو شروعه في محادثاته السرية مع نظام الفصل العنصري واستغراقها لفترات طوال مارس خلالها نوعا من السحر السياسي المتمثل بإقناع زملائه مع الحكمة لإقناع الجانب الثاني التي قال عنها ستنجل: (أعتقد إنها كانت لعبة طويلة لمانديلا مارسها بنجاح)، لكن هنالك شيئا كريها مارسه البعض للاتجار بهذه الشخصية الوطنية وبشيء من الهرج والمرج كما يعبر ستنجل عنها، وقد خاض محاموه معركة شرسة ضد أولئك المتعبين من الناس الذين يبذلون المال من أجل شراء تراث هذا الرجل وجعله سلعة للبيع والمساومة به بمبالغ خيالية، فالعديد من الكتب الجديدة التي هي مجرد صور ومعلومات أصبحت مألوفة حتى قبل بضع سنوات عندما بدأت قوته تتلاشى، ويمكن الوصول إليها بسهولة وحتى في العام ١٩٩٤ عرف الصحفيون شعب تلك البقعة نتيجة لحكم البيض العنصري لها، ستنجل جعل من هذه المذكرات قابلة للقراءة بعد أن الفضائح، لكن بالمقابل هناك عدد قليل يمكن أن نطلق عليها موجة ثانية من الكتب حوت رؤى جديدة وحقيقية كالمؤلف ديفيد جيمس في كتابه "شباب مانديلا" الذي قال في معرض حديثه عما كتب عن مانديلا: (هناك ضجيج سبق نشر بعض ما كتب عن مانديلا وحمل عناوين لافتة للنظر قيل للقراء وقتها إنها كشف عن حقيقة تلك الأسطورة، لكنها في الحقيقة تعريض خاطئ لحياة خاصة سادتها فوضى قبل وبعد إطلاق سراحه، منها الادعاء بأنه كان يضرب زوجته الأولى مرارا وكنت أتوقع أن التاريخ سوف يعيد النظر بالكثير مما كتب عن هذه الشخصية الفريدة).

في الدفعات الأولى من الكتب التي صدرت عنه عام ١٩٩٠ اتسمت بالاستغلالية فقد روى أحداها أن أحد حراس سجنه فتح له حسابا من السندات لمصالح ذاتية مبالغ فيها كان من المفروض رفضها من قبل مساعديه، بينما جرى العكس ولا ندري من كان يقبض الثمن؟

انتوني سامبسون صديقه القديم نشر عام ١٩٩٠ نتفا من تلك السيرة استكملها بعد ذلك الكاتب مارتن ميريديث بعناية وحملت عنوان "مانديلا.. مختصر السيرة الذاتية" والتي نشرت عام ١٩٩٩ مستوعبا فيها كل الأدلة المنشورة والمتاحة وبذلك ترتفع حصيلة الكتب الصادرة عن مانديلا حتى خلال سنوات ما بعد الرئاسة عندما قاد نضالا جديدا هو مكافحة الايدز.

مانديلا الآن يعيش سنواته الـ٩٢ وسط احتفالات كبيرة عززته الأمم المتحدة بإقرارها أن عيد ميلاده في عمره الآن هو يوما دوليا تكريما لبطل النضال ضد نظام الفصل العنصري قالت عنه زوجته غارسا ماشل إن نلسون مانديلا سيحتفل بعيد ميلاده وسط العائلة وأضافت انه سيكون يوما هادئا بالنسبة له وان صحته جيدة جدا رغم نحوله.

وأمام بيته احتشد عدد من الأشخاص لرؤيته في وقت مبكر بينما حضرت مواطنته جيسي مارتينا حاملة باقة كتبت عليها "عيد ميلاد سعيد مانديبا" وهي التسمية التي يطلقها مواطنوه عليه وكانت ترد: أريد أن أراه.. أريد أن أراه.

صــورة نصفيــة لمانديلا...

مَن يتذكــر دكــلارك؟

ساطع راجي

العقل التجزيئي، سواء بسبب الكسل او الانانية، يمارس فعلا تدميريا ليس للذاكرة فقط وإنما لمعطيات الراهن بطريقة تقلص من امكانية انتاج مستقبل افضل، فأولئك الذين يتذكرون جزءا من الحقيقة ويهملون الاجزاء الاخرى اعتمادا على فعالية الزمن انما لا يريدون الخروج من الحلقة المفرغة للمأساة السياسية في الشرق الاوسط عامة وفي العراق خاصة.

في الأونة الاخيرة كثيرا ما يتردد اسم مانديلا في استحضار مستلزمات المصالحة الوطنية في العراق باعتباره نموذجا للسياسي المتسامح القادر على انجاز مصالحة تحقق الاستقرار وتتجنب روح الثأر، وفي هذا الاستحضار يتناسى العديدون ليس الفارق بين الحالتين، جنوب افريقيا والعراق فقط، ولكن ايضا يتناسون الفارق بين كل من نظام التمييز العنصري هناك ونظام الاستبداد هنا، وبشكل ادق، فانهم يقطعون الصورة التي تجمع مانديلا مع خصمه فريدريك دكلارك وهما يتسلمان معا جائزة نوبل للسلام مناصفة، واذا كان مانديلا مناضلا صلبا ومدافعا شريفا عن الحقوق الانسانية والسياسية لشعبه، فأن دكلارك هو السياسي الجريء والمنصف الذي استطاع ان يتجاوز ذاته وافكار مجتمعه المتعصب ويعمل على الاطاحة بالنظام الذي يرأسه هو نفسه، في حالة من العقلانية السياسية المستحيلة الشبيه في الشرق الاوسط، وكان من حقه كسياسي ان يضمن حياته وحياة رجال نظامه، لكن حتى ذلك لم يجر بمعزل عن حس العدالة الذي تجسد في عملية اعتراف اخلاقي لمن ساهم في القمع من رجالات النظام بعيدا عن العواقب القانونية المباشرة، ولكن عملية الاطاحة السلمية بنظام التمييز العنصري والتي قادها زعماء النظام انفسهم اقصت رموز وفكر ذلك النظام عن الحياة السياسية، وهنا يبدو الفارق جوهريا بين الحالة العراقية وحالة جنوب افريقيا، ويبدو ان سلوك دكلارك وزملائه كان نوعا من الشعور المكثف بتغير الزمن وضرورة التقدم نحو المستقبل بدل انتظاره، وبالتالي فأن دكلارك صنع مصيره بدل انتظار الاسوأ حتى اللحظة الاخيرة كما يفعل معظم الطغاة القساة والاغبياء. مع بشاعة نظام الفصل العنصري وقسوته الا انه كان يتمسك بالعقلانية السياسية التي دفعت ذلك النظام الى الحفاظ على حياة خصمه العنيد (نيلسون مانديلا) وان كان خلف القضبان، وطوال سنوات كانت وسائل الاعلام تحتشد خارج المقر الامني الذي يلتقي فيه مانديلا بزوجته في زيارات دورية منتظمة، لتخرج تلك المرأة السوداء بثيابها التقليدية لتدلي بالتصريحات وتنقل التوجيهات علنا من زوجها، حتى صارت تلك المرأة وموكبها مما اعتاده مشاهدو نشرات الاخبار حتى في العراق، اما الصورة في بلاد الرافدين فقد كانت مقلوبة تماما، فنادرا ما يحصل ذوو المتهمين السياسيين على جثث ذويهم سواء اكانوا من القادة ام من المناضلين العاديين، حتى ان الرئيس الامريكي بوش وصف معضلة المصالحة في العراق بالقول، ان صدام قضى على كل شخص بامكانه ان يقوم بدور مانديلا في العراق.

لكن يبدو ان النظم القمعية في المنطقة لا تكره في بلدانها دور مانديلا فقط بل انها اكثر كرها لدور دكلارك، حتى ان تنظيماتها الحزبية تكاد تخلو ليس فقط من شخص قادر على تفكيك النظام القمعي عندما يصل الى نهاية حياته، بل تكاد تخلو ايضا من اشخاص قادرين على التحلي بالشجاعة لدفن ذلك النظام بعد موته، والاقتناع بان ذلك النظام الاستبدادي لا يورث وان ما كان يتمتع به من سلطة انما هو مجرد حالة سلب مارسها ضد شعبه.

ان اولئك الذين يغفلون عن عمد الجزء المتعلق بدكلارك في صناعة الاستقرار والسلام في جنوب افريقيا انما يريدون اعفاء انفسهم من اية خطوة ايجابية في انجاز المصالحة التي يريدونها مجرد تسوية تأخذ من طرف وتعطي طرفا اخر، من دون ان يكون للماضي حتى مجرد الذكرى مع مايحمله ذلك من خطر على المستقبل، خطر يعرفه يقينا كلا الطرفين.

مع ذلك لا بد من الاشارة الى المعلومات الاولية عن نية احد اجنحة حزب البعث العراقي المنحل الى عقد مؤتمر في احدى دول الجوار لمراجعة مسيرة الحزب اثناء الحكم وتعديل افكار الحزب واصلاح آلياته السياسية، وتعديل موقفه من الديمقراطية وحقوق الانسان والتداول السلمي للسلطة، علما ان لا احد يجرؤ على التفاؤل بهذه الخطوة حيث لا يوجد تأكيد على ان تلك النوايا ناجمة عن وعي حقيقي بتطور العالم وتغير مفاهيم السياسة الحديثة، ام ان تلك الاشارات مجرد حلقات في الصراع بين اجنحة البعث للوصول الى صورة تسمح لهم بالجلوس مع الامريكان والعراقيين على طاولة الحوار السياسي، وبالتالي العودة الى الحياة السياسية، فالتجربة الطويلة والمريرة تقلص من حجم الأمل.

نيلسـون مانديلا... أيقونة الأحرار في العالم

حيدر وسام

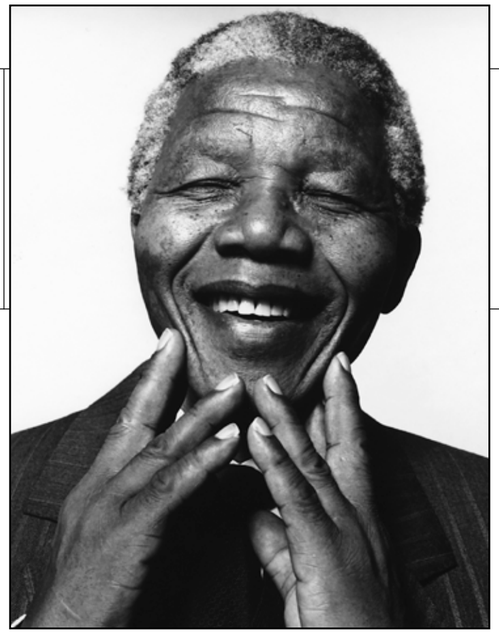

"لم يدر في خلدي قط إنني لن أخرج من السجن يوما من الأيام ، وكنت أعلم بأنه سيجيء اليوم الذي أسير فيه رجلاً حرا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمي ، فإنني أصلاً إنسان متفائل .وجزء من هذا التفاؤل هو أن يبقي الإنسان جزءاً من رأسه في إتجاه الشمس وأن يحرك قدميه الى الأمام".

(نيلسون مانديلا)

" شخصية كارزمية حكيمة وكريمة، عانى كثيراً، وإنتصر على أعدائه ولكنه لم ينتقم منهم، سياسي محنك ولكنه يتصرف كمواطن عادي بسيط". الصحفي البريطاني (مايكل وايت)

ولد رولبلالا مانديلا (نيسلون مانديلا) في منطقة "ترانسكاي" في جنوب أفريقيا (١٨ تموز-يوليو/١٩١٨). وفي عمر ٧ سنوات أصبح أول فرد من عائلته يذهب إلى مدرسة، حيث أطلق عليه أحد مدرسيه المبشرين إسم نيلسون.

بعدها بسنوات توفي والده، وفي سن ١٦ توجه لمعهد "كلاركبيري" ليتعلم عن ثقافة الغرب. وأنهى المرحلة الأولى من الدراسة بستتين بدل من الثلاث سنوات الإعتيادية.

وفي التاسعة عشر من عمره توجه إلى كلية "ويسليان"، حيث واجه الطرد من الجامعة بسبب مشاركته في أحتجاجات طلابية على سياسات الجامعة، ثم بدأ بعدها الإعداد لنيل البكالوريوس من جامعة "فورت هار" ولكنه فصل من هذه الجامعة أيضا مع رفيقه "اوليفر تامبو" عام ١٩٤٠ بتهمة الإشتراك في إضراب طلابي. و المعروف إن مانديلا عاش فترة دراسية مضطربة وتنقل بين العديد من الجامعات وقد تابع الدراسة بالمراسلة من مدينة "جوهانسبورغ" في جنوب أفريقيا، وحصل على موافقة الإلتحاق بجامعة "ويتواتر ساند" لدراسة الحقوق.

كانت جنوب أفريقيا في تلك الفترة خاضعة لحكم يقوم على التمييز العنصري الشامل، إذ لم يكن يحق لأصحاب البشرة السوداء من المواطنين الإنتخاب أو المشاركة في الحياة السياسية أو إدارة شؤون البلاد، بل أكثر من ذلك كان يحق للحكومة (والتي كان يرأسها "البيض") أن تجردهم من ممتلكاتهم أو أن تنقلهم من مقاطعة إلى أخرى، بالإضافة الى الكثير من أعمال التمييز العنصري الذي إمتازت به حكومة جنوب أفريقيا في وقتها.

■النشاط السياسي

كان الحكم في جنوب أفريقيا ينكر الحقوق السياسية والإجتماعية والإقتصادية للأغلبية السوداء. لذا بدأت بودار النشاط السياسي لمانديلا بالظهور ، ففي عام ١٩٤٢ إنضم مانديلا إلى (المجلس الأفريقي القومي) الذي كان يدعو للدفاع عن حقوق الأغلبية السوداء في جنوب إفريقيا بشكل سياسي وسلمي من خلال المظاهرات وطرح الآراء والرؤى التي من شأنها الحيلولة دون فرض وإستخدام سياسات التمييز العنصري ضد أغلبية الشعب الجنوب أفريقي. وظل مانديلا ضمن صفوف المجلس الأفريقي مساهماً في الكثير من نشاطاته.

وفي عام ١٩٤٨، حيث أنتصر (الحزب القومي) في الإنتخابات العامة ، وكان لهذا الحزب، الذي يحكم من قبل البيض من جنوب إفريقيا، خطط وسياسات عنصرية، منها سياسات الفصل العنصري وإدخال تشريعات عنصرية في مؤسسات الدولة. أصبح مانديلا قائدا لحملات المعارضة والمقاومة السلمية في المجلس الأفريقي القومي.

وكان مانديلا ومنذ بداية إنتمائه للمجلس الأفريقي القومي يدعو للمقاومة غير المسلحة ضد سياسات التمييز العنصري. لكن بعد حادثة إطلاق النار على متظاهرين عزل في عام ١٩٦٠، وإقرار قوانين تحظر الجماعات المناهضة للعنصرية، قرر مانديلا وزعماء المجلس الأفريقي القومي فتح باب المقاومة المسلحة.

■ إعتقاله وسجنه

في عام ١٩٦١ أصبح مانديلا رئيسا للجناح العسكري للمجلس الأفريقي القومي. وفي آب-أغسطس/١٩٦٢ أعتقل وحكم عليه بالسجن لمدة ٥ سنوات بتهمة السفر غير القانوني، والتدبير للإضراب. وفي عام ١٩٦٤ حكم عليه مرة أخرى بتهمة التخطيط لعمل مسلح، وحكم عليه هذه المرة بالسجن مدى الحياة.

خلال سنوات سجنه الثمان و العشرين، أصبح النداء بتحرير مانديلا من السجن رمزاً لرفض سياسة التمييز العنصري. وفي ١٠ حزيران-يونيو/١٩٨٠ تم نشر رسالة إستطاع مانديلا إرسالها للمجلس الأفريقي القومي قال فيها: "إتحدوا! وجهزوا! وحاربوا! إذ ما بين سندان التحرك الشعبي، ومطرقة المقاومة المسلحة، سنسحق الفصل العنصري".

وفي عام ١٩٨٥ عرض على مانديلا إطلاق السراح مقابل إعلان وقف المقاومة المسلحة للمجلس، الا أنه رفض العرض. وبقي في السجن لغاية ١١ شباط-فبراير/١٩٩٠ عندما أثمرت مثابرة المجلس الأفريقي القومي، بالإضافة الى الضغوطات السياسية من قبل أغلب دول العالم من أجل إطلاق سراحه بأمر من رئيس الجمهورية آنذاك (فريدريك دكلارك) الذي أعلن أيقاف الحظر الذي كان مفروضاً على المجلس الأفريقي القومي. وقد حصل نيلسون مانديلا مع الرئيس فريدريك دكلارك في عام ١٩٩٣ على جائزة نوبل للسلام.

رئاسة المجلس الإفريقي ورئاسة جنوب إفريقيا:

شغل نيلسون مانديلا منصب رئاسة المجلس الأفريقي (من حزيران-يونيو/١٩٩١- إلى أيلول-ديسمبر/١٩٩٧)، وأصبح أول رئيس ذو بشرة سوداء يحكم جنوب أفريقيا (من آيار-مايو/١٩٩٤- إلى حزيران-يونيو/١٩٩٩).

وخلال فترة حكمه شهدت جنوب أفريقيا إنتقالاً كبيراً من حكم الأقلية إلى حكم الأغلبية. و لكن ذلك لم يمنع البعض من إنتقاد فترة حكمه لعدم إتخاذ سياسات صارمة لمكافحة مرض الأيدز (وقد توفي إبنه مكجاثو مانديلا في عام ٢٠٠٥ بسبب إصابته بمرض الأيدز عن عمر ناهز الرابعة والخمسين) ، وقد أعلن ماندلا ماكجاثو حفيد نيلسون مانديلا، خلال الجنازة أن أمه ،زوندي، توفيت في العام الماضي ٢٠٠٤ بسبب إصابتها بمرض الإيدز أيضا) ، هذا ومن جانب آخر تعرض نيلسون مانديلا للإنتقاد أيضاً بسبب علاقاته المتينة بزعماء دول منتقدين من قبل الغرب مثل معمر القذافي و فيدل كاسترو.

■ تقاعده

بعد تقاعده في عام ١٩٩٩ تابع نيلسون مانديلا تحركه مع الجمعيات والحركات المنادية بحقوق الإنسان حول العالم. وتلقى عدداً كبيراً من الميداليات والتكريمات من رؤساء وزعماء دول العالم وفي ٢٠٠٥ إختارته الأمم المتحدة سفيراً للنوايا الحسنة.

وكان لمانديلا كذلك عدد من الآراء المثيرة للجدل في الغرب مثل أرائه حول القضية الفلسطينية ومعارضته للسياسات الخارجية للرئيس الأمريكي جورج بوش، وغيرها.

في حزيران-يونيو/٢٠٠٤ قرر نيلسون مانديلا ذو الـ ٨٦ عاماً التقاعد وترك الحياة العامة، ذلك أن صحته أصبحت لا تسمح له بالتحرك والإنتقال، كما أنه فضل أن يقضي ما تبقى من عمرة بين عائلته. و لا زال لمانديلا ثلاث بنات، واحدة من زواجه الأول، واثنتان من زواجه الثاني ، بينما لقي نجله الثاني، ماديبا ثيمبكيلي، حتفه في حادث سيارة عام ١٩٦٩.

ربما يكون نيلسون مانديلا أشهر السجناء السياسيين الذين عرفهم العالم في القرن الماضي، ولاشك أن إنجازاته جديرة بالإعجاب، حيث لم يصبح فقط رئيسا لبلاده (جنوب أفريقيا) بعد أن كان سجينا فيها لقرابة ثلاثة عقود، وإنما حصل أيضا على جائزة نوبل للسلام.

ولم يقدم مانديلا أية تنازلات في سبيل كفاحة الطويل ضد التفرقة العنصرية سواء في بلاده أو خارجها ونال إعجاب الجماهير في شتى إنحاء العالم من مختلف الألوان والجنسيات والأعمار والثقافات.

وتقديراً لمسيرة حياته المليئة بالأحداث التي تستحق الذكر والدراسة ، فقد شيد له مؤخرا في أب-أغسطس/٢٠٠٧ تمثل في ميدان البرلمان في لندن وقد حضر مانديلا هذا الإحتفال بنفسه. وقد قام بتصميم التمثال الفنان النحات إيان وولترز، ويبلغ إرتفاعه ٢,٧ متر.

وقد قال الصحفي البريطاني عادل درويش في هذه المناسبة" إن تمثال نيلسون مانديلا محاط بتماثيل من صنعوا التاريخ ومن صنعوا الديمقراطية، أمثال إبراهام لينكون، أوليفر كرومويل و ونستون تشرتشل وغيرهم من العظماء".

كما قال البريطاني مايكل وايت الصحفي في صحيفة الغارديان" إنه محبوب جداً في بريطانيا، قضى في السجن مدة طويلة جدا وشاع ذلك بين الجماهير العريضة التي تعاطفت معه".

وتابع وايت قائلاً "إن رئيسة الوزراء السابقة مارغريت تاتشر كانت تعده إرهابياً حتى نهاية فترة حكمها تقريباً وكان هذا من أخطائها العديدة. وإن من أهم السمات التي تميز مانديلا أنه شخصية كارزمية حكيمة وكريمة، عانى كثيراً، وإنتصر على أعدائه ولكنه لم ينتقم منهم، سياسي محنك ولكنه يتصرف كمواطن عادي بسيط".

وأصبح إسم مانديلا وسيبقى رمزاً لكل الشعوب الحرة التي تبغي الديمقراطية وترنو للسلام والإستقلال من دون إستخدام العنف بل بواسطة الحوار والتصارح والمصالحة والتسامح ، وما يزال مانديلا رغم تقدمه بالعمر دؤوبا على العمل الخيري والتطوعي من أجل نشر قيم السلام والمحبة بين شعوب الأرض.

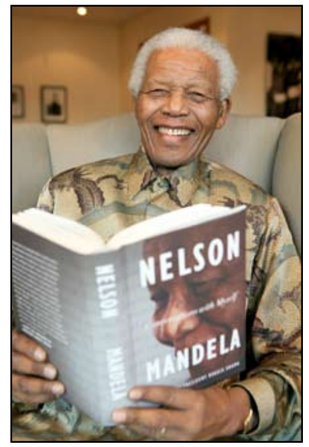

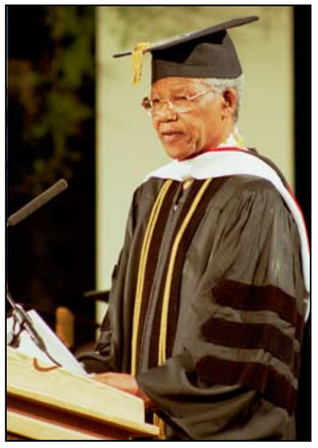

دروس نيلسون مانديلا في القيادة

نشرت مجلة «التايمز» الأميركية أخيرا تقريرا مميزا للكاتب ريتشارد ستينغل عنونه بـ«مانديلا: دروسه الثمانية في القيادة»، وذلك بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد التسعين للزعيم والمناضل الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا، الذي برز ضمن أشد المقاومين لنظام الفصل العنصري «الأبارتهايد» في جنوب أفريقيا على مر العقود، ودفع ثمنا غاليا جراء نضاله المرير ذاك، فقضى ٢٧ عاما سجينا في زنزانة بجزيرة روبن من دون أن يسمع خلالها «صياح طفل أو أن يمسك يد طفل»، بحسب الكاتب الذي يصف فيه شعور المناضل الإفريقي بالسعادة الغامرة حينما التقى بأطفال الكاتب.

وتكمن في نظري أهمية هذا التقرير الذي أراد له الكاتب كما كتب في أن يكون لحظة ختامية فارقة للقاء مميز ينتر فيه الزعيم لؤلؤ خبرته ودرر تجاربه في العمل السياسي وفي القيادة النضالية، هو أن هذا التقرير يبين كيف كان يلعب مانديلا بمرونة فائقة أدوار المحارب والقدائي والدبلوماسي ورجل الدولة من دون أن يخل بقوانين وقواعد أي منها. إذ أشار مانديلا للكاتب بتجرد بسيط هو أن القضية لم تكن سؤالا للمبدأ وإنما هي سؤالا للتكتيكات، فنيلسون مانديلا في النهاية هو سيد للتكتيكات كما أشار لذلك الكاتب.

ومن خلال استعراض نماذج معينة توجز لرؤية نيلسون مانديلا للقيادة وتصوره لها بناء على خبرته النضالية وحتى خبرته المعيشية مع قبيلته، فقد ذكر الكاتب نقلا عن مانديلا ثمانية دروس وقواعد رئيسية لابد أن يعرفها القائد ويمسك بخيوطها جيدا حتى يتمكن من تحقيق غايته المبدئية بأفضل ما هو متاح من سبل ومسالك، وأول هذه الدروس هو «الشجاعة ليست غياب الخوف وإنما هي إلهام الآخرين بإتباعها» حيث يستعرض الكاتب تحت هذا البند الأولي إحدى تجارب نيلسون مانديلا المريرة أثناء الحملة الانتخابية الرئاسية في العام ١٩٩٤م حينما كان بصحبة وفد في طائرة، وتعطل أحد محركاتها بشكل مفاجئ وخشي من معه من سقوط الطائرة، وأبدوا تلك الخشية في الوقت الذي كان فيه مانديلا يقرأ باهتمام إحدى الصحف وهو جالس على مقعده، فما أن هبطت الطائرة حتى كشف مانديلا للبعض عن أنه قد اعتراه وجوم شديد من إمكان سقوط الطائرة كغيره وذلك أمر طبيعي، كما أنه كان خائفا أثناء محاكمته قبلها بفترة طويلة، إلا أنه لم يشأ أن يكشف ويبدي خوفه وهو الزعيم والمناضل أمام الناس، فلابد حينها من أن يقودهم ويشجعهم على التحرك نحو الأمام ويكون لهم نموذجا ملهما في مواصلة الصمود وعدم التضعضع والاستلام للخوف، كما وينقل الكاتب عن بعض رفاق مانديلا في السجن الذين رووا له كيف كان منظر مانديلا وهو يتجول في الفناء باعتزاز يشجعهم على مزيد من الصبر والصمود!

أما بالنسبة إلى الدرس الثاني فهو «قد من الأمام ولكن لا تدع القاعدة ورائك» وهنا يستعرض الكاتب تجربة مانديلا بعدما أصيب في السجن بتضخم البروستاتا في ١٩٨٥م فنقل إثر ذلك إلى الخارج لإجراء عملية جراحية وبعد شفائه ورجوعه مرة أخرى إلى السجن تم عزله في زنزانة انفرادية لأول مرة منذ ٢١ عاما من سجنه، وقد تشاءم كثيرا من رفاقه في السجن من ذلك الإجراء واحتجوا عليه إلا أن مانديلا قال لهم «انتظروا لدقيقة يا رفاق فربما هنالك خير من وراء ذلك» كما نقل الكاتب عن رفيق مانديلا Ahmed Kathrada.

فما أن تم نقل مانديلا إلى زنزانة انفرادية حتى أتيحت له الفرصة ليباشر المفاوضات مع حكومة «الأبارتهايد»، وأقلقت في حينها خطوته تلك رفاقه، وأقضت مضاجعهم، ومنهم من رد وتصور أن مانديلا بات على المحك من تصفية وبيع تاريخه النضالي ومبادئه لصالح حكومة «الأبارتهايد»، إذ مثلت خطوة مانديلا بالنسبة للمؤتمر الوطني الإفريقي كما لو أنها لعنة وذلك بعد مقولة «السجناء لا يمكنهم أن يفاوضوا» و من بعد الدفاع عن النضال المسلح لإجبار الحكومة على الركوع والجثوم كما أشار لذلك الكاتب!

وعلى الفور من بعد استهلال مفاوضاته مع الحكومة شرع مانديلا في إقناع رفاقه بتأنٍ بجدوى المفاوضات فردا فردا حتى تمكن من إقناعهم وهو ما يعني ضرورة الاستناد إلى القاعدة لمواصلة التقدم في النهاية، كما أن رفض التفاوض هو خيار تكتيكي وليس مبدئيا بالنسبة إلى مانديلا الذي يوصف بأنه أكثر المثاليين براغماتية وعملية وفقا للمؤلف الذي نقل قولا للأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي رامفوسا وذلك حول مانديلا كقائد قال فيه «هو ليس من صنف القائد الذي يعلك علكة حالما وبرميها بعد ذلك»، وبحسبه فقد كان مانديلا سباقا على رفاقه في رؤيته التاريخية بعيدة المدى التي لا تقاس بأيام وأسابيع وإنما بعقود وأجيال، إذ إنه لطالما آمن أن التاريخ بجانبه وهي ليست سوى مسألة وقت حتى تتصحح الأوضاع في النهاية مهما طال هذا الزمن.

وفي ما يتعلق بالدرس الثالث في القيادة فهو «قد من الخلف ودع الآخرين يعتقدوا بأنك في الأمام» فيجلي الكاتب اهتمام مانديلا باستذكار أيام صباه حينما كان يرعى الماشية ويعلق على ذلك بقوله «لا يمكنك أن تقودها إلى من الوراء» كما تأثر مانديلا كثيرا بالزعيم القبلي جونغينتابا الذي رباه واعتنى به، والذي حينما كان يجتمع مع أعضاء مجلسه فإن الأخيرين يحيطونه بشكل دائري ومن بعد أن ينتهوا جميعا من الحديث فإن الزعيم يبدأ بعدهم بالحديث، فمهمة الزعيم الرئيسي بحسب مانديلا لا تتعلق بتوجيه الأوامر للشعب للتحرك وفقها، وإنما مهمة الزعيم هي خلق وتكوين الإجماع، كما أنه لطالما اهتم بعبارة «لا تدخل المناقشة مبكرا جدا».

ويشير ستينغل إلى أنه وحينما يلتقي مانديلا برفاقه في الاجتماعات فقد دأب بشكل ممنهج وبطيء على تدوين آرائهم ومن ثم إبداء رأيه الشخصي بمنتهى اللطف والرقة ليوجه ويوحد آراء الرفاق من دون أن يؤثر فيها ويفرض عليها ما لا تطيق، فمثل ذلك السلوك الماهر هو ما يسمى بـ«حيلة القيادة» التي تتيح مانديلا تسمح لنفسك وأنت القائد بأن تقاد أيضا وتساهم في إقناع الرفاق برأيك حتى يعتقدوا كما لو أنه رأيهم وفكرهم!

وبخصوص الدرس الرابع من دروس مانديلا للقيادة فهو «اعرف عدوك وتعلم عن رياضته المفضلة» وهنا يستعرض الكاتب تجارب المحامي نيلسون مانديلا منذ الستينات في تعلم تاريخ ولغة وثقافة «الأفريكانيرز» وهم الجنوب إفريقيين من أصول أوروبية، وقد استشنأ عليه البعض من رفاقه ذلك، إلا أن مانديلا لم يكترث وواصل اطلاعه وتعلمه وزيادة معارفه في ما يتعلق برياضة «الرغبي» وهي الرياضة المفضلة لدى شعب «الأفريكانير» وتدوين ملاحظاته التفصيلية حولها.

كما يروي الكاتب عن جهود المحامي مانديلا حينما كان سجينا في مساعدة سجانيه في مشكلاتهم القانونية وهو ما أثار في حينها إعجابهم واستغرابهم من ذلك كما يستشهد الكاتب بمقولة المؤرخ الجنوب إفريقي البارز أليستر سباركس حول ذلك «أدرك مانديلا بأنه حتى الأسوأ والأكثر جفاء من الممكن أن تتفاوض معه».

وفي الدرس الخامس وشعاره «ضع أصدقاءك بقربك وضع منافسيك في موقع أقرب» يتناول الكاتب نماذج وأمثلة متعددة في فن إدارة مانديلا لعلاقاته ليس فقط مع أصدقائه ورفاقه الأقرب إلى ثقة قلبه ومكنون وعيه، وإنما حتى مع منافسيه وخصومه في الحياة السياسية العامة ربما ضمن ذات المؤسسة وخارجها، فهو لا يشن عليهم حروبا شعواء ويزيد من عزلتهم ويشهر بهم ويخونهم، وإنما يحتويهم بمنتهى اللطف والرقة ويناقشهم ويستشيرهم، ومن بينهم زعيم الجناح العسكري بالمؤتمر الوطني الإفريقي كريس هاني الذي لطالما اعتقد أنه يتآمر على مانديلا، كما أشار المؤلف، هو وغيره من قيادات المال والأعمال وشخصيات سياسية عكف مانديلا على الاتصال بها شخصيا للتهنئة أثناء أعياد ميلادها إلى جانب اتصالاته واقترابه من سجانيه الذين أصبحوا أصدقاءه من بعد!

إن مانديلا بذلك يطبق منهاجا إذا ما أردت التأثير في الخصوم والمنافسين واحتواءهم فعليك أن تعانقهم وتتعاطف معهم، إذ إن خطورة المنافسين تزداد في عزلتهم وتخفت في دخولهم دائرة الاحتواء والتأثير، ويبين الكاتب أنه وإن كان مانديلا يهتم بالولاء ويعزه فإنه يحول دون أن يصبح ممسوسا ومشغوفا به، فهو في النهاية يؤمن بمقولته «الناس تعمل وفقا لمصالحها الخاصة» وهذا ضمن طبيعة الإنسان وليس أمرا خاطئا!

وبالنسبة إلى الدرس السادس وهو «المظهر يهم وتذكر أن تبتسم» فيستعرض المؤلف ما للأناقة الشخصية والبنيان الجسدي المندرجة ضمن الكاريزما الشخصية والذاتية من أعظم الأثر على نفوس مريدي الزعيم والمناضل والسياسي نيلسون مانديلا وهي أمور لا غنى عنها وخصوصا حينما يعتمد عليها في سد عوامل نقص جانبي في القدرات الخطابية والإلقائية غير المميزة لمانديلا الذي أدرك ذلك مبكرا، وراعاه جيدا منذ زمن النضال حينما كان زعيما للجناح العسكري للمؤتمر الوطني الإفريقي، إذ لطالما كان يصر على تصويره بلباس ملائم ولحية، وفي الأيام الأخيرة يرتدي مانديلا مجموعة من ملابس «التي شيرت» الزاهية والنضاحة بالحيوية التي تعطيه صورة الجد المبتهج لإفريقيا الحديثة وهو يشارك في مختلف الفعاليات الاجتماعية والثقافية الشعبية باستمرار كما يشرح الكاتب ذلك الاختلاف.

كما أن لابتسامة نيلسون مانديلا المميزة التي يصورها المؤلف كما لو أنها شمس ساطعة في سماء غائمة أعظم الأثر في توصيل الرسائل إلى عامة الشعب الجنوب إفريقي بيضا وسودا، ففي حين أنها تعني للبيض انحسار وشح مرارة مانديلا وتعاطفه معهم، فإنها تعني للسود أنه المحارب المنتصر والسعيد بانتصاره كما يورد المؤلف أمثلة على ذلك. وفيما يتعلق بالدرس السابع وهو «لا يوجد هنالك شيء أبيض أو أسود» يتطرق الكاتب إلى سؤاله لمانديلا «حينما قررت ترك خيار النضال المسلح فهل ذلك يرجع لكونك قد أدركت أنه ليس لديك القوة للإطاحة بالحكومة أم أنك أدركت أنه بإمكانك كسب ثقة الرأي العالمي باختيار اللاعنف؟» فأجاب مانديلا على سؤال الكاتب «ولماذا لا يكون كلا الخيارين متاحين؟».

ويشير المؤلف إلى أن الرسالة التي أراد أن يوصلها مانديلا هي أن «الحياة لم تكن فقط مع أو ضد، فعملية اتخاذ القرار هي عملية معقدة ودائما ما تكون هنالك عوامل متنافسة، ويتناول البعد البراغماتي من سيرة مانديلا الذي كان يقيم حساباته على أساس «ما هي النهاية التي أود أن أنشدها» ما هي أكثر الطرق عملية لبلوغها؟»، وهو لا ينكر عون ومساعدة الزعيم الليبي معمر القذافي والزعيم الكوبي فيدل كاسترو له في مساعدة المؤتمر الوطني الإفريقي حينما اعتبرته الولايات المتحدة الأميركية إرهابيا، فالأميركيون بحسب مانديلا لا يرون الأشياء إلا باللونين الأبيض والأسود فقط، وهو أمر ضد طبيعة الأشياء حيث المشكلة لها أسباب كثيرة ومنها أزمة نظام الأبارتهايد العنصري بجذورها التاريخية والاجتماعية والسيكولوجية.

وربما آخر دروس مانديلا وأكثرها أهمية هو «الاستقالة هي قيادة أيضا» ويستهل المؤلف شرح هذا الدرس وهو يبرز الظهور التلفزيوني لمانديلا حينما قدم اقتراحا بإنزال الحد العمري الأدنى للتصويت الانتخابي إلى ١٤ عاما وعلى رغم كونه الداعم الوحيد لهذا الاقتراح وبالتالي سقوط هذا الاقتراح فإن مانديلا تقبل هذا الرفض بمنتهى الرقي والتواضع ولم يعبس ويحتج على ذلك وهو درس في القيادة يجب الاستفادة منه بنظر الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي رامفوسا.

ويبرهن الكاتب على أن القدرة على تجاوز الفكرة أو المهمة أو العلاقة الخاسرة عادة ما يكون أصعب القرارات التي يتخذها الزعيم، فبحسب المؤلف أن أعظم إرث تركه وخلده مانديلا كان طريقة مغادرته للسلطة، وإن كانت الرئاسة مدى الحياة هي أبسط رد جميل لمعاناته وتضحياته التي لا تقدر بثمن، وهو كما ذكر الأمين العام للمؤتمر الوطني الإفريقي رامفوسا رأى أن مهمته هي «وضع الدرس وتحديد الوجهة»، وليس «توجيه السفينة»، وبالتالي أدرك منذ البداية أن «القادة يتمكنون من القيادة بقدر ما يختارون وليس بقدر ما يفعلون»، وبالتالي استفاد مانديلا ونضج كثيرا من تجربته المريرة في السجن كما أشار إلى ذلك، وبالتالي لا تتناقض رؤية مانديلا الإنسان مع إدانته لديكتاتور زمبابوي روبرت موغابي الذي استغل تاريخه النضالي في تدشين أبشع الديكتاتوريات وأكثرها تخلفا!

إن الغاية من نشر وتداول مثل تلك الدروس والوصايا القيادية الآتية كخلاصة صافية من قدر زعيم ومناضل عالمي من الطراز الرفيع كنيلسون مانديلا لربما ليس فقط محاولة عابثة لمس شغاف أنظمة الغنيمة وعروش البؤس، بل من الممكن أن تمتد تلك الغاية النقدية إلى قيادات وصفوف المعارضة التي امتهنت للأسف ذات دروس الديمقراطية الإجرائية المتلقاة سلطويا واكتسبت أعراض متلازمتها حتى تاهت وابتذلت غير أن السلطة تفوقت عليها بفن التحرك المتوازن في ذلك، فلا ريب أنه من الضروري أن تنتصر الأمة والشعب والتنظيم في نظر مناضل ورمز وقائد سياسي وأب حنون لجميع الأفارقة لا أن تنتصر الشلة و لـ «حتة» مقعد برلماني خوان كما لدينا!

كما أن إدراك الفلسفة الإنسانية للقيادة والزعامة النضالية وميكانزماتها المرنة ودروسها التاريخية قد يدفع إلى تجنب وتحاشي تقديس بعض الإخوة من أصحاب المواقف الخشبية والتصريحات الحديد الأكثر امتصاصا لنار السلطة وعبثها وإعادة خلقها وبعثها الرمادي الكئيب!

وإعادة الاكتشاف لمفهومية القيادة من منظور مانديلا بالتالي تزشدنا كعامل محفز للتعامل مع المتعصبين والمتطرفين ضمن مقامهم المناسب كأمراء وأولياء وحكماء في أزمنة وأمكنة الانحطاط والهوان والتردي، وبالتالي هو يحرج الممارسات الاحتكارية والاختطافية المطوقة بديمقراطية حزبية إجرائية مبتذلة كالتي تتبعها زعامات معارضة يسارية، وذلك قبل المعارضة الدينو سياسية، فتخلط الحابل بالنابل، وتمتهن «سبع صنايع والبخت ضايع» من دون أن تساءل عن مسئولياتها التنظيمية والاجتماعية ليس لسبب سوى كونها تميزت بلائحة واسعة من أوسمة وشارات التزكية الانتخابية دون أن تعلم أن القيادة أمانة وليست أمنية، وربما أمام ذلك الطوفان من الاستلاب والتفريغ والإغراق بالتعويذة الديمقراطية ليس غريبا حينها أن يظهر في أحد الأزمنة البائسة ومن داخل الشلة اليسارية والتقدمية أحد «الهتيفة» من يدعو إلى انتخاب الزعيم وابن الزعيم علنا!

أليس حريا حينها بأقطاب المعارضة في مشهديها المحلي والإقليمي أن تتدارس وتمعن التدبر في وصايا ودروس نيلسون مانديلا أو ربما حتى مقولة الوالد المناضل الوطني عبدالرحمن النعيمي شفاه الله حينما انتقد الشح الديمقراطي للأحزاب السياسية العربية ودعاها إلى «دمقرطة» نفسها بداية؟!

متى العودة إلى الروح؟!

عن مجلة التايمز

رسالة نيلسون مانديلا لثوار الربيع العربي

" نص رسالة تاريخية وجهها الزعيم الافريقي نيلسون مانديلا ، إلى ثوار مصر وتونس خاصة، وثوار العرب عامة. وفي ما يأتي نصها:

أعتذر أولاً عن الخوض في شؤونكم الخاصة، وسامحوني إن كنت دسست أنفي في ما لا ينبغي أن تقحم فيه.

لكني أحسست أن واجب النصح أولاً، والوفاء ثانيًا لما أوليتمونا إياه من مساندة أيام قراع الفصل العنصري يحتمان علي رد الجميل وإن بإبداء رأي مَحَّصته التجارب وعجنته الأيامُ وأنضجته السجون.

أحبتي ثوار العرب؛ لا زلت أذكر ذلك اليوم بوضوح. كان يومًا مشمسًا من أيام كيب تاون. خرجت من السجن بعد أن سلخت بين جدرانه عشرة آلاف عام.

خرجت إلى الدنيا بعدما وُوريتُ عنها سبعًا وعشرين عامًا لأني حلمت أن أرى بلادي خالية من الظلم والقهر والاستبداد ورغم أن اللحظة أمام سجن فكتور فستر كانت كثيفة على المستوى الشخصي إذ سأرى وجوه أطفالي وأمهم بعد كل هذا الزمن، إلا أن السؤال الذي ملأ جوانحي حينها هو:

كيف سنتعامل مع إرث الظلم لنقيم مكانه عدلاً؟

أكاد أحس أن هذا السؤال هو ما يقلقكم اليوم. لقد خرجتم لتوكم من سجنكم الكبير وهو سؤال قد تحدد الإجابة عليه طبيعة الاتجاه الذي ستنتهي إليه ثوراتكم.

إن إقامة العدل أصعب بكثير من هدم الظلم، فالهدم فعل سلبي والبناء فعل إيجابي.

أو على لغة أحد مفكريكم –حسن الترابي– فإن إحقاق الحق أصعب بكثير من إبطال الباطل.

أنا لا أتحدث العربية للأسف، لكن ما أفهمه من الترجمات التي تصلني عن تفاصيل الجدل السياسي اليومي في مصر وتونس تشي بأن معظم الوقت هناك مهدر في سب وشتم كل من كانت له صلة تعاون مع النظامين البائدين وكأن الثورة لا يمكن أن تكتمل إلا بالتشفي والإقصاء، كما يبدو لي أن الاتجاه العام عندكم يميل إلى استثناء وتبكيت كل من كانت له صلة قريبة أو بعيدة بالأنظمة السابقة، ذاك أمر خاطئ في نظري.

أنا أتفهم الأسى الذي يعتصر قلوبكم وأعرف أن مرارات الظلم ماثلة، إلا أنني أرى أن استهداف هذا القطاع الواسع من مجتمعكم قد يسبب للثورة متاعب خطيرة، فمؤيدو النظام السابق كانوا يسيطرون على المال العام وعلى مفاصل الأمن والدولة وعلاقات البلد مع الخارج. فاستهدافهم قد يدفعهم إلى أن يكون إجهاض الثورة أهم هدف لهم في هذه المرحلة التي تتميز عادة بالهشاشة الأمنية وغياب التوازن. أنتم في غنى عن ذلك، أحبتي.

إن أنصار النظام السابق ممسكون بمعظم المؤسسات الاقتصادية التي قد يشكل استهدافها أو غيابها أو تحييدها كارثة اقتصادية أو عدم توازن أنتم في غنى عنه الآن.

عليكم أن تتذكروا أن أتباع النظام السابق في النهاية مواطنون ينتمون لهذا البلد، فاحتواؤهم ومسامحتهم هي أكبر هدية للبلاد في هذه المرحلة، ثم إنه لا يمكن جمعهم ورميهم في البحر أو تحييدهم نهائياً، ثم إن لهم الحق في التعبير عن أنفسهم وهو حق ينبغي أن يكون احترامه من أبجديات ما بعد الثورة.

أعلم أن مما يزعجكم أن تروا ذات الوجوه التي كانت تنافق للنظام السابق تتحدث اليوم ممجدة الثورة، لكن الأسلم أن لا تواجهوهم بالتبكيت إذا مجدوا الثورة، بل شجعوهم على ذلك حتى تحيدوهم وثقوا أن المجتمع في النهاية لن ينتخب إلا من ساهم في ميلاد حريته.

إن النظر إلى المستقبل والتعامل معه بواقعية أهم بكثير من الوقوف عند تفاصيل الماضي المرير.

أذكر جيدا أني عندما خرجت من السجن كان أكبر تحد واجهني هو أن قطاعا واسعا من السود كانوا يريدون أن يحاكموا كل من كانت له صلة بالنظام السابق، لكنني وقفت دون ذلك وبرهنت الأيام أن هذا كان الخيار الأمثل ولولاه لانجرفت جنوب إفريقيا إما إلى الحرب الأهلية أو إلى الديكتاتورية من جديد. لذلك شكلت "لجنة الحقيقة والمصالحة" التي جلس فيها المعتدي والمعتدى عليه وتصارحا وسامح كل منهما الآخر، إنها سياسة مرة لكنها ناجحة.

أرى أنكم بهذه الطريقة– وأنتم أدرى في النهاية– سترسلون رسائل اطمئنان إلى المجتمع الملتف حول الديكتاتوريات الأخرى أن لا خوف على مستقبلهم في ظل الديمقراطية والثورة، مما قد يجعل الكثير من المنتفعين يميلون إلى التغيير، كما قد تحجمون خوف وهلع الدكتاتوريات القائمة من طبيعة وحجم ما ينتظرها.

تخيلوا أننا في جنوب إفريقيا ركزنا – كما تمنى الكثيرون– على السخرية من البيض وتبكيتهم واستئنائهم وتقليم أظافرهم؟ لو حصل ذلك لما كانت قصة جنوب إفريقيا واحدة من أروع قصص النجاح الإنساني اليوم.

أتمنى أن تستحضروا قولة نبيكم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

نلسون روهلا لا مانديلا
هوانتون - جوهانزبيرغ

جنوب أفريقيا والتجربة العراقية

سناء حسين الداوودي

في كل المجتمعات التي تغادر نظاماً سياسياً إلى آخر، فتنتقل من نظام استبدادي دكتاتوري إلى نظام ديمقراطي، لابد من أن تمر بمرحلة انتقالية. هذه المرحلة يتم فيها انتقال المجتمع من حكم قمعي إلى حكم ديمقراطي او من حالة حرب أهلية إلى حالة سلم او من احتلال إلى مرحلة الخلاص من الاحتلال. هذه المرحلة لها متطلباتها ومستلزماتها للتخلص من ارث الماضي والانتقال للحاضر والمستقبل.

فالمرحلة الانتقالية في حياة اي مجتمع تعني ان هناك عملية تغيير كبيرة حدثت على المستوى السياسي والثقافي والاجتماعي والتجارب الديمقراطية كثيرة في العالم تختلف باختلاف المجتمعات وثقافاتها ودرجة تطورها لتقبل هذه الديمقراطية التي لا تعني فقط الذهاب لصناديق الاقتراع وممارسة الانتخابات، فالشعوب تتطلع من خلال تطبيقها لحل قضاياها المهمة خاصة الاقتصادية والاجتماعية، حيث تسهم في التغيير الايجابي في حياة الشعوب في المجال الاقتصادي والاجتماعي.

فالديمقراطية لها دور كبير في خلق بيئة صالحة يتم فيها تحفيز قدرات المجتمع للتفاعل مع القضايا المحلية والإقليمية، وعلى الشعوب اختيار النموذج الذي يصلح لها ويتفق وتراثها السياسي والثقافي ودرجة تطورها المؤسسي السياسي.

ويمكن للشعوب المتطلعة للحرية كالشعب العراقي الاستفادة من التجارب الأخرى في العالم من خلال الإطلاع على نماذج منها ودراستها ومحاولة تطبيق البعض من المبادئ في الجوانب التي تتطابق مع تجربتنا الديمقراطية في العراق.

فتجربة جنوب أفريقيا من دون شك استطاعت تقديم ذلك النموذج فهي تملك دستوراً ديمقراطياً متميزاً وهو ليس مجرد نصوص كتبتها أيد حكومية بل شاركت في كتابته القواعد الشعبية واستمر الجدل والنقاش حول بنوده أكثر من أربع سنوات فاستغرق إنجاز الدستور بصيغته النهائية من سنة ١٩٨٩ إلى ١٩٩٦، وتخللت تلك الفترة انفجارا لأعمال عنف هددت العملية الدستورية في المرحلة الأساسية بين سنة ١٩٩٠ -١٩٩٤ وأجريت المفاوضات بشأن الاتفاقات المتعلقة بالعملية الدستورية خلال دورات واجتماعات خاصة وعامة بين الخصوم السابقين وشملت تلك الحوارات على التفاوض بشأن المفاوضات الدستورية كما شهدت سنة ١٩٩٣ اتفاقات بخصوص الإجراءات وشملت في خاتمة المطاف اتفاقاً حول دستور انتقالي يتضمن مبادئ وإجراءات ملزمة بالنسبة لعملية وضع الدستور النهائية والتي اعتمدت على مشاركة المواطنين فيها. وهذا الملف يشبه كثيرا ما حدث في التجربة العراقية في مرحلة كتابة الدستور والاهتمام الكبير في كتابته من خلال تشكيل اللجان من جميع المكونات وإعطائها الوقت الكافي لكتابة دستور عراقي جديد خضع لاستفتاء الشعب وموافقته.

ولقد تعرضت التجربة العراقية كما تعرضت تجربة جنوب أفريقيا لمرحلة من العنف كان يهدف إلى إفشال التجربة الديمقراطية من خلال التشجيع على العنف الطائفي في العراق وإثارة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، ومع اختلاف الأجندات إلا إن الهدف كان واحداً وهو النيل من التجربة الديمقراطية من قبل أطراف لا تريد لها النجاح لأسباب تختلف باختلاف التجربة. ومن المعالجات التي لجأ إليها الطرفان في هذا الملف هو اللجوء إلى المصالحة الوطنية بين الأطراف المتنازعة وهو تشابه أخر في التجربتين.

ومما يشار إليه من التشابه بينهما وهو حالة اليأس التي وصلت إليها أحزاب المعارضة في البلدين قبل القضاء على الحكم الدكتاتوري في تلك البلدان حيث تعرضت الأحزاب المعارضة في العراق إلى اشد أنواع الإقصاء والتهميش والتعرض للسجن أو الإعدام والقتل والاضطرار لمغادرة البلاد والعمل من الخارج لعقود طوال.

وكذلك شهدت الساحة في جنوب إفريقيا نضالاً مستمراً وصل إلى زج الزعيم نيلسون مانديلا إلى غياهب السجون ولم يكن يحلم انه سيخرج يوما ليحقق حلمه في تخليص البلاد من سياسة الفصل العنصري.

ولكن حدث وصار مانديلا أول رئيس منتخب عقب نهاية الفصل العنصري، كما إن جنوب أفريقيا قدمت نموذجاً عندما اقر المؤتمر الوطني بخطأ سياسة الفصل العنصري وعرف إنها قد استنفدت أغراضها وانه لابد من الوصول لتسوية سياسية.

وعلى ضوء ذلك قامت شراكة سياسية حقيقية بين البيض والأفارقة.

ويقدم نموذج جنوب أفريقيا نماذج على أكثر من مستوى، فعلى مستوى الحكم المحلي الذي يتمتع بسلطات حقيقية، فالمعارضة استطاعت أن تفوز بمقاعد مجلس مدينة بريتوريا. وهذه الملاحظة مهمة لكي ندرك أهمية دور المعارضة في التجارب الأخرى في العالم.

ومن الجدير بالذكر إن التجربة في جنوب أفريقيا عملت على تطوير أداء الأحزاب السياسية إذ لا توجد ديمقراطية من دون وجود أحزاب يتاح لها إمكانية العمل بحرية وان تكون في داخلها ديمقراطية وتملك القدرة على التعبير عن رغبات الناس. وهذا ما نحتاجه في تجربتنا العراقية التي ما زالت بلا قانون أحزاب ينظم عملها ويؤطر نشاطاتها حسب الدستور والقوانين الخاصة بها.

وأخيرا علينا أن نستفيد من تجربة جنوب افريقيا في إنها تجاوزت جراحاتها وانتقلت إلى مرحلة جديدة عبر إشاعة لغة التسامح ومفاهيم نسيان الماضي والبدء من جديد ونشر مبادئ وقيم المواطنة الحقيقية عبر إعلام مهني حر ومن خلال تعاون منظمات المجتمع المدني التي لابد لها من دور فاعل في نجاح أية تجربة يراد من خلالها بناء مجتمع مدني يعيش في ظل تجربة ديمقراطية ناجحة.

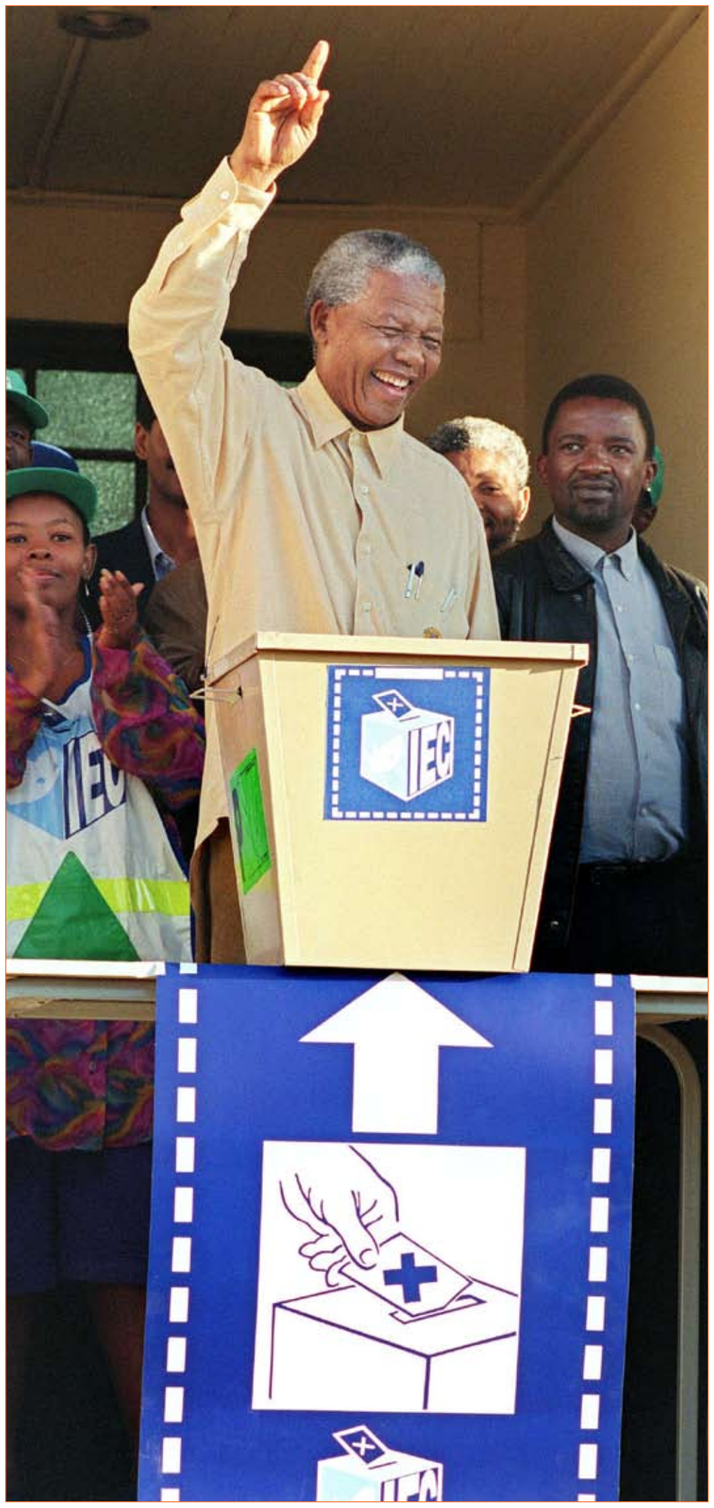

نيلسون مانديلا وصفحات التاريخ

كاظم الموسوي

احتفل نيلسون مانديلا بذكرى خروجه من السجن بعد ان قضى فيه سبعا وعشرين سنة، أنهى معظمها في سجن روبن آيلاند، (جزيرة صغيرة وسط مياه المحيط الأطلنطي، تبعد زهاء ٢٥ كيلومترا عن مدينة كيب تاون)، قبل ان ينقل إلى سجن بولزمور ومن ثم – قبل إطلاق سراحه مباشرة – إلى سجن فيكتور فيرستر، القريبة كلها من كيب تاون. وجمع في الحفل زوجته السابقة ويني، التي كانت قد احتفلت معه في يوم خروجه، وسجانا كان يبدء مفتاح زنزانته، وشاركته بالتأكيد أجيال من المواطنين في بلاده، جنوب إفريقيا وربما في العالم أيضا، خصوصا من تابع المسيرة الطويلة نحو الحرية التي انتهجها مانديلا. لم تكن تلك السنوات التي انتهت في السجن ولا التي تلتها عادية، وهي في كلا الحالتين سنوات من عمر الرجل، أعطاها حقها، ومنحته اسمه، رمزا بطوليا وقائدا حكيما يحتكم له ويقلد في تجربته، أو في نتائجها التي تمخضت عنها تلك السنوات وتلك المسيرة. ظلت العبارة الشعبية الشهيرة التي نطق بها مودعا السجن، وهو يرفع يديه إلى السماء مناديا الجماهير المحتشدة لاستقباله، (أماندلا)، التي تعني "السلطة للشعب" بلغة الزولو، مفتاحا وبداية لمرحلة جديدة أخرى من النضال الوطني والإنساني. وما كان الاحتفال بالذكرى عابرا، أو خاصا، فهو تعبير عن دروس وعبر لمن يريد ان يعتبر أو يدرس تجربة كفاح شعب من اجل الحرية والاستقلال والديمقراطية والسيادة والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان عامة.

ولد نيلسون مانديلا في ١٨ تموز/ يوليو ١٩١٨، التحق في سنوات الأربعينات بجامعة فورت هار، ثم انتقل بعدها إلى جامعة "ويتواترسراند" بجوهانسبورغ لدراسة القانون حيث بدأ نشاطه ووعيه السياسي، ضد التمييز العنصري والعبودية. أسس برفقة آخرين رابطة الشباب بحزب المؤتمر الوطني الأفريقي الذي انضم إليه في العام ١٩٤٤. وفي ١٩٤٨ فاز الحزب القومي في الانتخابات العامة بجنوب أفريقيا وأسس نظام الفصل العنصري (الأبارتهيد). فقاد مانديلا حملات المعارضة والمقاومة السلمية. في ٢١ آذار/ مارس ١٩٦٠، أطلقت الشرطة النار على متظاهرين سود ببلدة شاربفيل، محولة المظاهرة السلمية إلى مجزرة من أرواح ٦٩ شخصا.. وردا على عنف السلطات وقمعها شكل وحزبه في ١٩٦١ الجناح المسلح لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي ليخوض عمليات الكفاح المسلح.

بعد عام تم اعتقال مانديلا (وهذا اسمه الشعبي أيضا)، وحكم بالإعدام على مانديلا عام ١٩٦٢ وبعض القادة الثوريين الآخرين أمثال والتر سيسولو ومبيكي وأحمد كاثرادا بعد اتهامهم بتخريب الممتلكات العامة والخيانة العظمى وغيرها من التهم، لكن حملات التضامن والمقاومة الداخلية والخارجية نجحت في إنقاذ رقابهم من المشنقة. ولم تطلق سراحهم، بل نقل مانديلا، من سجن بريتوريا والحراسة المشددة إلى زنزانة انفرادية بسجن روبن آيلاند. وأصبح مانديلا أثناء فترة سجنه رمزا دوليا للكفاح ضد العنصرية والفصل العنصري.

تصاعد النضال من أجل الحرية في أرجاء جنوب أفريقيا، ونشطت أعمال المقاومة كما تعالت أصوات التضامن الدولي للضغط على الحكومة العنصرية من أجل إطلاق سراح مانديلا وباقي المعتقلين السياسيين، وصولا إلى يوم ٢ شباط/ فبراير ١٩٩٠. حيث أعلن رئيس جنوب أفريقيا السابق فريدريك دي كليرك، اقتراب موعد الإفراج عن الزعيم التاريخي، وفتح صفحة جديدة في تاريخ البلاد، وخطوة مهمة نحو إنهاء نظام الفصل العنصري.

مهد إطلاق سراح نيلسون مانديلا لإقامة أول انتخابات ديمقراطية في جنوب أفريقيا، وبعده بأربعة أعوام، أصبح أول رئيس منتخب ديمقراطياً في تاريخ البلاد عندما تم تنصيبه في أيار/ مايو ١٩٩٤، وأصبح حديث العالم، إذ تصدر عناوين وسائل الإعلام العالمية، وتوجه زعماء دول العالم إلى لقاء زعيم الحرية ورمز النضال الوطني والقيادة السياسية، وانتشر اسمه وذاعت قصة كفاحه من جديد في أركان المعمورة وفي اللغات الحية.

أوضح نيلسون مانديلا في كتابه الشهير رحلتي الطويلة في طريق الحرية، الذي يستحق قراءة خاصة به مع الملاحظات عليه، والذي ترجم إلى عشرات اللغات، ومن بينها اللغة العربية: "عندما خرجت من السجن ماشيا على قدماي، كانت مهمتي تتمثل في تحرير الظالم والمظلوم معا، لقد مشيت في تلك الطريق الطويلة من أجل بلوغ الحرية، محاولا أن أحافظ على رباطة جأشي. صحيح أنني ارتكبت بعض الأخطاء في تقدير خطواتي أحيانا، لكني اكتشفت سرا مفاده أن المرء مهما انتهى من تسلق تل شامخ، إلا وتبين له أن هناك العديد من التلال الأخرى بانتظاره."

حمل مانديلا في حياته قصة شعبه وبلاده ورغم كل ما حصل في سيرته المديدة فان التاريخ سجل له مآثر كثيرة. من بينها كونه بوتقة المصالحة الوطنية والتسامح والقيم الإنسانية، الرجل الذي جنب بلاده حربا أهلية كانت تهددها في التسعينات من القرن الماضي، وخطى بها خطوات جريئة على طريق التحرر والتقدم والبناء.

قال عنه فريدريك ديكليرك، آخر رئيس في نظام الفصل العنصري، الذي خاض معه مفاوضات التحول الديمقراطي، وشاركه جائزة نوبل للسلام ١٩٩٣: مانديلا كان في معظم الأوقات يبالغ في التعامل مع الأمور، وكان ظالما أحيانا... ولكنه واحد من اكبر الشخصيات السياسية في نهاية القرن العشرين.

أما خريستو براند، الذي كان حارس مانديلا في السجن، فقال عن اليوم الذي أطلق فيه سراح مانديلا: "تمنيت ألا يحدث أي عنف، وبالفعل لم يحدث. فقد مر كل شيء كما يجب. إنا عليم بأسلوب مانديلا في التفاوض، فهو يفكر دائما بالجانب الآخر أيضا. لم يحصر مانديلا اهتمامه بالسود ومعاناتهم، بل كانت مخاوف البيض في هذه البلاد نصب عينيه كذلك". وأضاف حارس السجن السابق: "لهذا السبب توصل مانديلا إلى حل جيد لجنوب إفريقيا".

قصة كفاح مانديلا درس حافل بالعبر لمن يريد ان يدخل التاريخ من أوسع أبوابه.

دروس «مانديلا» للمتعصبين

أكرم القصاص

في تلك السنوات الحالكة الطويلة تحول لهفي على حرية قومي إلي لهف على حرية كل الناس، البيض منهم والسود. كنت أعلم أن حاجة الظالم إلي الحرية، أمس من حاجة المظلوم. فالذي يسلب إنسانا حريته يصير هو نفسه أسيرا للكراهية والحقد. يعيش وراء قضبان التعصب وضيق الأفق.. إن الظلم يسلب كلا من الظالم والمظلوم حريته». كانت هذه هي كلمات «نيلسون مانديلا» الزعيم الجنوب أفريقي العظيم بعد أن انتصر على العنصرية والقمع.

وكانت أول كلماته بعد خروجه من السجن «أيها الأصدقاء. أيها الرفاق. يا مواطني جنوب أفريقيا. أحييكم جميعا باسم السلام والديمقراطية والحرية للجميع. إنني لا أقف هنا أمامكم كنبي، ولكن كخادم متواضع يخدمكم أنتم يا أبناء هذا الشعب. إن تضحياتكم البطولية المتواصلة هي التي مكنتني من الوقوف أمامكم اليوم. وعليه فإنني أضع ما تبقى من سنوات عمري بين أيديكم».

لماذا نتذكر «مانديلا» الآن؟ لأننا بعد التخلص من نظام ظالم مازلنا نري من بيننا من يصر على ممارسة الظلم والتمييز، لقد كانت العنصرية في جنوب أفريقيا تمارسها الأقلية البيضاء ضد الأغلبية السوداء، ومع هذا استطاع أن يحرر شعبه، ليس فقط من العنصرية ولكن من الكراهية. أما نحن فليس لدينا أغلبية وأقلية بل شعب متجانس عاني أغلبيته من الظلم والتفرقة وتم استبعاد أبنائه لأنهم فقراء، لم تكن الواسطة ولا الفساد يفرقان بين مسلم ومسيحي ولا بين نوبي وسيناوي، ومع هذا وقبل أن تكتمل الثورة وتبني وطنا للعدالة والحرية والمساواة، فإذا بالكراهية تكاد تخنق الثورة، وتفتح الباب لأعداء الحرية لينفذوا منها.

مانديلا» تجربة مجانية في الثورة والمقاومة والديمقراطية. دفع أكثر من ربع عمره في السجن ٢٩ عاما. رفض التنازل عن «إنهاء العنصرية»، وخرج منتصرا. لم يطالب أحدا بأن يدفع له ثمن تضحياته. ولم يطلب من شعبه أن يصلب ويموت فداءً له. لم يقل إنه فعل معجزة «لم أتلق وحيا.. ولكنها آلاف الاستخفافات والإهانات، تجمعت لتثير في نفسي ذلك الغضب وروح التمرد والرغبة في مناهضة النظام الذي عزل قومي واستعبدهم».

في انتخابات الرئاسة عام ٩٤ صوت الشعب لرمز حريته، وكان طبيعيا أن يكتسح، لم يواصل المزايدة بما جري له ولم يطلب الثمن.. وعندما جاء أوان رحيله عن الحكم سلم السلطة في بلاده. ولايزال وهو في الثالثة والتسعين من عمره يقدم درسا في الحرية والديمقراطية.

مانديلا» مازال وهو في الثالثة والتسعين من عمره، يقدم درسا لمن ضربت الشيخوخة قلوبهم وعقولهم. قال في عيد مولده الثالث والتسعين» إن النظر إلي المستقبل والتعامل معه بواقعية أهم بكثير من الوقوف عند تفاصيل الماضي المرير».

ربما يحتاج البعض للتعلم من «مانديلا» قبل الغوص في وحل التعصب والطائفية. دعوة لقراءة سيرة رجل لتحرير أعدائه من الكراهية ورفاقه من الانتقام.

مانديلا يكشف في كتابه "حوار مع نفسي" عن "حبه الكبير" لزوجته الثانية ويني "الشجاعة"

أ ف ب

كتاب "حوار مع نفسي" للزعيم الجنوب أفريقي نلسون مانديلا، في شكل مجموعة رسائل كتبها في السجن وملاحظات دونها على مر الأيام ومقتطفات من أحاديث. ويتطرق مانديلا لحب زوجته الثانية ويني والعقود التي قضاها وراء القضبان وحتى وصوله لسدة الرئاسة عام ١٩٩٤.

في كتاب جديد يصدر هذا الاسبوع يكشف نلسون مانديلا بشكل حميمي تحمسه وترددا ته والم الكبير الذي شكله الانسلاخ عن عائلته خلال اعتقاله من خلال رسائل كتبها في السجن وملاحظات دونها على مر الايام ومقتطفات من احاديث.

ويحمل هذا الكتاب اسم "حوار مع نفسي"، وهي نصوص كتبها مانديلا البالغ اليوم من العمر ٩٢ عاما، وهو يظهر الوجه الشخصي لهذا الرجل الذي تحول رمزا عالميا للمصالحة في القرن العشرين.

وكتب مقدمة الكتاب الرئيس الاميركي باراك اوباما، وحيا فيها حياة مانيلا "المناقضة للعبث وللاستسلام للقدر الشائعين في عالمنا". ومن المنتظر ان يصدر الكتاب الثلاثاء في عدد من دول العالم.

ويتناول الكتاب محطات وعناوين مختلفة من حياة مانديلا، من حبه الكبير لزوجته الثانية ويني، وحركة جوهانسبورغ في الخمسينات، والعقود الثلاثة التي قضاها وراء القضبان، ومن ثم الاعوام الانتقالية، وصولا الى رئاسته البلاد بين العامين ١٩٩٤ و١٩٩٩ بعد خروجها من نظام الفصل العنصري الذي استمر نصف قرن.

وتلقي مجموعة الرسائل والمذكرات والحوارات الضوء على احدى المراحل الاقل بروزا في حياته، وهي المرحلة السابقة للسنوات السبع والعشرين التي قضاها في السجن بين العامين ١٩٦٢ و١٩٨٩.

وبعدما اصبح مانديلا واحدا من الاعضاء الاساسيين في حزب المؤتمر الوطني الافريقي، اصبحت حياته الاجتماعية غنية، وتوطدت علاقته بعدد من الناشطين ضد الفصل العنصري، مثل روث فيرست، التي يصفها ب"الفتاة الرائعة"، والتي قتلت العام ١٩٨٢ بطرد بريدي مفخخ في موزمبيق.

ويتطرق مانديلا الى سفره الى لندن في عام ١٩٦٢، ويقول "كان أمرا شيقا ان اذهب الى انكلترا، الى عاصمة الامبراطورية البريطانية السابقة".

ولا يكاد يخلو جزء من الكتاب من ذكر زوجته ويني ماديكيزيلا "الشجاعة والمصممة التي تحب شعبها من كل قلبها"، والتي تزوجها في عام ١٩٥٨، قبل اربع سنوات على دخوله السجن.

وفي كانون الاول/ديسمبر من العام ١٩٧٩، وجه مانديلا رسالة الى ابنته زيدزي تمت مصادرتها كتب فيها "كانت امك رائعة ومشعة، عشنا معا شهر عسل بكل معنى الكلمة لمدة سنتين".

وفي الكتاب ايضا عدد من الرسائل التي تكشف المه من عدم قدرته على رؤيتها، ومن المضايقات التي كانت تمارسها عليها سلطات الفصل العنصري.

وجاء في واحدة من هذه الرسائل التي كتبها في الاول من آب/اغسطس ١٩٧٠ لزوجته "أي زمن قاس نعيشه!. أشعر أن كل اعضاء جسمي، من لحم ودم وعظم وروح، غارقة في المرارة. ان عجزي التام عن مساعدتك في هذه الاوقات الرهيبة التي تمرين بها يجعلني حزينا جدا".

ولم يشأ مانديلا التركيز على ملابسات انفصاله عن زوجته بعد خروجه من السجن رغم الحاح الناشرين.

أما رسائله التي كتبها من سجنه في جزيرة روبن ايلاند قبالة سواحل الكاب حيث أمضى ١٨ عاما من سنوات سجنه السبع والعشرين، فهي تروي اضافة الى الصراع السياسي الآلام التي يعانيها السجين.

ففي رسالة الى صديق، يصف مانديلا اهمية الزيارات التي تكسر "الرتابة القاتلة"، "فالوجوه هي هي، والحوارات هي هي، والروائح كذلك، والجدران التي ترتفع الى السماء هي نفسها".

ولا يغيب عن الكتاب النقد الذاتي، اذ يقر مانديلا فيه بان بعض خطاباته او كتاباته الاولى شابها "التعجرف" و"التصنع" و"عدم الاصالة".

ويقول مانديلا الحائز جائزة نوبل للسلام "احد الامور التي كانت تقلقني بشدة في السجن هي الصورة الخاطئة التي عكستها عن غير قصد الى العالم الخارجي؛ وهي صورة القديس... لم اكن يوما قديسا، حتى بالمفهوم الدنيوي للقديس باعتباره خاطئا يستمر في المحاولة لتحسين ذاته".

انتبهوا: السيد مانديلا يطرق الأبواب

مهدي النجار

في كل بلدان الاستبداد والتمايز بين البشر، يدخل الزعماء المستبدون التاريخ عنوة وقسراً، سواء من أبوابه أم من شبابيكه، يدخلون بلا أغطية شرعية لا من الله ولا من البشر، يدخلون عن طريق «صلة الرحم» لأنهم أولاد مستبدون، او عن طريق التزويرات والمؤامرات والدسائس وغالباً ما يكون هذا الطريق مُعبداً بالدمار والدم، والمهم حين يدخلون التاريخ يستأنسون بمسك زمام السلطة، يسترخون على كرسيها مدى الحياة، وإذا اقتضى امر هذا الاسترخاء ان تُغير السنن والدساتير والأعراف فلا بأس، وإذا اقتضى ان تسفك الدماء وان يُعاث بالارض فساداً فلا بأس، وإذا اقتضى ان تكمم الافواه وتملأ السجون ويُطرد الرافضون خارج اوطانهم فلا بأس...من النادر ان نعثر على زعماء شجعان يدخلون التاريخ الإنساني من ابوابه المشرقة والمضيئة. هاهو السيد مانديلا (روليهلا نيلسون مانديلا مواليد ١٩١٨) يطرق ابواب التاريخ ليدخله شامخاً بأمتياز كرجل اسود حياته ناصعة البياض،

يدخل التاريخ ومعه كل الاوراق الشرعية التي تؤهله بالدخول، واول هذه الاوراق نضاله المرير الطويل من اجل ان تتحرر بلاده جنوب افريقيا من الحكم الذي يقوم على التمييز العنصري الشامل، الحكم الذي حجب الحرية عن السود، فلاحق لهم بالانتخابات ولاحق لهم بالمشاركة في الحياة السياسية او إدارة شؤون البلاد. بل والاكثر من ذلك كان يحق لحكومة الاقلية البيضاء ان تجردهم من ممتلكاتهم او تنقلهم من مقاطعة الى اخرى، شعر مانديلا بقسوة التمييز وحرمانه من الحرية ولكن مع ذلك عرف ان تحرير نفسه مرهون بتحرير الآخرين، مرهون بإلغاء كل العسف الواقع على الجميع،

لذا بدأ رحلة التحرير القاسية واستمرت هذه الرحلة حتى وهو في داخل السجن مدة سبع وعشرين سنة! كم من القوة والصلابة قد يبلغها انسان ليصمد كل هذه الفترة؟ كم من العزيمة والإصرار يحتاج الإنسان لكي يبقى وراء هدفه حتى تحقيقه؟ قد يبدو الامر مستحيلاً ولكن مانديلا لم يجد لتلك الكلمة اي أثر في معجم حياته رغم انه تألم كثيرا وتعثر كثيراً ولكنه كان يرى وكما يقول: « ان العظمة في الحياة ليست في التعثر ولكن القيام بعد كل مرة نتعثر فيها»..وخلال سجنه اصبح النداء بتحرير مانديلا من السجن رمزاً لرفض سياسة التمييز العنصري، واخيرا نالت جنوب افريقيا حريتها وانتصرت على الفصل العنصري المقيت ليصبح مانديلا اول رئيس اسود لها (١٩٩٧ -١٩٩٩) بعد ان شغل منصب رئاسة المجلس الإفريقي الأعلى (١٩٩١ -١٩٩٤) وخلال فترة حكمه شهدت البلاد إنتقالاً جوهرياً من حكم الأقلية الى حكم الأغلبية، إضافة لهذه الأوراق المشرقة التي يعتز بها مانديلا وهو يطرق ابواب التاريخ ليدخل دائرته بجدارة نلاحظ انها، اي اوراق نضالاته ممهورة بجائزة نوبل للسلام التي حصل عليها هو وشريكه الابيض الرئيس السابق فريدريك دكلارك في عام ١٩٩٣ ولكن الاروع من ذلك كله ان يقرر رجل النضال ورجل السلام هذا ذو ٨٥ عاما الإعلان عن تقاعده وترك الحياة السياسية للأقدر والانشط منه وفضل ان يقضي ما تبقى من عمره بين عائلته وان يساهم في نشاطات المجتمع المدني المدافعة عن حقوق الإنسان في كل ارجاء العالم، طرقات الابواب النبيلة التي يدقها السيد مانديلا لكي يدخل فسحات التاريخ بجدارة قد يسمعها الآخرون، خاصة اهل الاستبداد، فيتعلموا الحكمة بالحكم، لان للتاريخ صولات وقحة يغربل فيها بصرامة من دخل فضاءاته دون مؤهلات او تأهيل فيعزلهم من دون شفقة ويرميهم الى القمامات.

عندما وقع الاختيار على الكاتب ريتشارد ستنجل الصحفي بمجلة تايمز كي يكتب السيرة الذاتية لزعيم جنوب إفريقيا نيلسون مانديلا، حزم حقائبه وسافر إلى جوهانسبرغ. وظل هناك ثلاث سنوات راح خلالها يجري معه مقابلات، يحاوره ويتبعه حيثما ذهب، ويلتقي بكل من له صلة بهذا الرجل الذي كافح من أجل إنهاء سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا وقضى جانبا لا بأس به من حياته سجينا، ثم نال حريته ليقود شعبه نحو الديمقراطية ويحصل على جائزة نوبل للسلام.

طريقة مانديلا

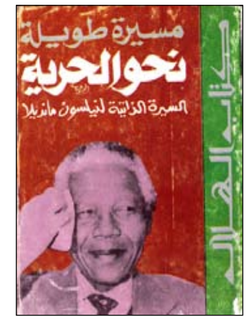

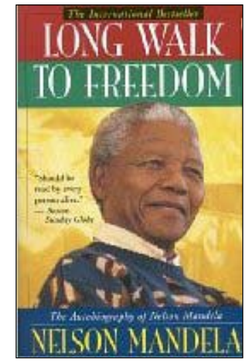

كانت حصيلة هذه المهمة كتابا بعنوان "مسيرة طويلة نحو الحرية". المدهش أن ستنجل خلال هذه السنوات عرف مانديلا عن قرب بدرجة فاقت توقعاته، واكتشف الكثير من الأسرار عن شخصيته وفلسفته في الحياة مما جعله مبهورا به كإنسان وزعيم، أي أنه وجد في جعبته مادة غزيرة تكفي لتأليف كتاب آخر، فكان كتابه الثاني عن الشخص نفسه: "طريقة مانديلا: خمسة عشر درسا في الحياة والحب والشجاعة".

يقول ستنجل إن في مشوار حياة مانديلا الكثير من الدروس المستفادة التي يمكن أن ينتفع بها القارئ العادي دون أن يكون بالضرورة زعيما أو سياسيا.

أول درس يمكن أن نتعلمه من مانديلا أن نعرف حقا من نكون، فمانديلا منذ مطلع حياته كان واعيا بتاريخ بلاده، ملما ومتشبعا ومعتزا بثقافته الإفريقية وتراثه، وكلها أمور تجعل الإنسان متوازنا وسعيدا لأنه يعرف ذاته.

الإصرار سمة أخرى ميزت مانديلا الذي كان هدفه القضاء على سياسة الفصل العنصري. فقرر بادئ الأمر أن يسلك طريق المقاومة السلمية، وعندما لم يصل إلى النتيجة المرجوة أسس الجناح العسكري للمجلس الوطني الإفريقي وقام بتدبير وتنفيذ عمليات تفجير وهجوم على أهداف عسكرية وحكومية، وهو ما أدى إلى اعتقاله عام ١٩٦٤ حيث وُجهت إليه تهمة التخريب ومعاداة النظام الحاكم ثم حكم عليه بالحبس وسجن لمدة سبعة وعشرين عاما. ورغم سنوات السجن وربما بسببها اكتسب مانديلا مزيدا من المؤيدين، وبسبب إصراره فقد تحقق له في نهاية المطاف ما أراد، فتحررت بلاده وأصبح أول رئيس لها، ثم سلم المسئولية لأجيال أخرى.

وكان السجن في الواقع خير معلم لمانديلا الذي خرج من السجن وهو في الحادية والسبعين من عمره إنسانا مختلفا تماما. فمانديلا الشاب كان مندفعا متقلب المزاج، وكان مانديلا الآخر إنسانا ناضجا غير مندفع في القول أو الفعل. يقول مؤلف الكتاب إن السجن زاد من سيطرة مانديلا على نفسه، أما مانديلا نفسه فيقول متفكها: "كانت تلك نتيجة طبيعية لأنك في السجن لا تجد شيئا آخر تستطيع أن تسيطر عليه سوى نفسك!".

من الأشياء الأخرى التي تعلمها مانديلا داخل زنزانته الضيقة التنظيم والتركيز، وهناك أيضا تعلم معنى الشجاعة. فمن الخطأ أن يتصور الإنسان أن الشجاعة هي انعدام الخوف. ويقول المؤلف إنه لم يكد يصدق عندما اعترف له مانديلا أنه كان في أوقات كثيرة يشعر بالخوف إلى حد الهلع، لكنه كان دوما يواجه خوفه ويتغلب عليه، وهذه هي الشجاعة الحقيقية.

أن يعرف الإنسان ويتفهم دوافع من يختلف معهم، درس آخر في غاية الأهمية. ففي السجن وجد مانديلا متسعا من الوقت – قرابة ثلاثة عقود – للتفكير فيما يشعر به أفراد الأقلية البيضاء في بلاده، تماما كما كان يتفهم ما تعانيه الأغلبية السوداء من غضب وإحباط. وقد انتهى به هذا المسلك إلى أن أصبح إنسانا يتسع صدره لمخالفيه ويحترم تماما وجهات النظر المختلفة. بعبارة أخرى تعلم مانديلا أنه في الحياة لا يوجد فقط لونان أبيض وأسود، بل الكثير من الأطياف الرمادية.

وعلى الرغم من صراع جنوب إفريقيا الطويل مع التفرقة العنصرية، فقد استطاع مانديلا أن يرتقي فوق مشاعر الكراهية. ومن أقواله المأثورة في هذا الشأن: "إنه لا يوجد إنسان يولد وفي قلبه كراهية لأحد بسبب لون أو جنس أو دين. الكراهية شيء مكتسب لا بد أن الناس يتعلمونه. وإذا كان الناس يتعلمون الكراهية، فالأولى بهم أن يتعلموا الحب لأنه شعور فطري".

من سمات مانديلا وأحد أسباب نجاحه كزعيم أيضا المرونة. يقول مؤلف الكتاب إنه سأله ذات مرة عن سبب تبنيه الكفاح المسلح وهل كان ذلك عن إيمان منه بأنه السبيل الأكيد للتغيير أم أنه كان يريد فحسب التأثير في الرأي العام؟ فرد عليه مانديلا قائلا: لماذا لا يكون الاثنان معا؟ بمعنى آخر أنه فيما يتعلق بالكثير من القضايا لا تكون الإجابة قاطعة بنعم أو لا، بل الاثنين معا. وبما أن الحياة شيء معقد للغاية، فقد يكون من المفيد ألا نستبعد أيا من الخيارات المتاحة لنا، بل من الممكن والمفيد أن نغير موقفنا ونقبل بخيارات مختلفة في مراحل مختلفة من أي مشكلة. من أقواله المأثورة: "إننا نقتل أنفسنا عندما نُضيّق خياراتنا في الحياة".

الصفة الأخرى التي أعجبت مؤلف الكتاب في مانديلا ويراها أحد أسباب تألقه كزعيم وكشخصية مؤثرة ومحبوبة هو اهتمامه بمظهره. يقول إنه إنسان أنيق حريص على أن يبدو دائما في أفضل صورة. فمظهر الإنسان يعكس من يكون، وهو أيضا أداة من الأدوات التي يؤثر بها الإنسان فيمن حوله.

وكزعيم وسياسي يتبنى مانديلا فلسفة تقول إن القيادة لا تعني أن يكون القائد دائما في المقدمة، بل كثيرا ما يكون دور القائد في الخلف. الأصل في هذه الفلسفة مستوحى من فلسفة رعاة الأغنام الذين يسيرون خلف القطيع وليس أمامه. ودور القائد أن يختار الأصغر سنا والأكثر ذكاء وحيوية كي يشق الطريق، ويكون دور القائد الحقيقي التشجيع والمتابعة.

الإنسان الناجح هو الشخص الذي تكون لديه رؤية لحياة أفضل من دون أن يستأثر لنفسه بدور البطولة، بل يدعو الآخرين إلى المشاركة. بقدر ما يصدق ذلك على الزعماء في الحياة السياسية يصدق كذلك على الناس العاديين في حياتهم اليومية سواء عند التعامل مع الأبناء وفي محيط الأسرة أو مع الأصدقاء والعلاقات الاجتماعية. ففي الحياة ليست هناك بطولة مطلقة.

أما الدرس الأكثر أهمية الذي يمكن أن نستخلصه من مشوار حياة نيلسون مانديلا الذي يمتد حتى الآن لأربعة وتسعين عاما فيتمثل في قوله: "إن العظمة في هذه الحياة ليست في ألا نتعثر، ولكن في أن نستطيع القيام بعد كل مرة نتعثر فيها".

عرض/ منارات

مانديلا.. سيد قدره

لطفي حداد

ولد نيلسون مانديلا عام ١٩١٨ في منطقة ترانسكاي في إفريقيا الجنوبية. وفي عام ١٩٤٤ انتمى إلى حزب "المجلس الوطني الإفريقي" ووضع خطة التحرك التي تبناها الحزب عام ١٩٤٩. وبمشاركة أوليفر تامبو أنشأ عام ١٩٥٢ أول مكتب محاماة للسود في جنوب إفريقيا.

اعتقل مانديلا عام ١٩٦٠ على إثر مذبحة شاربفيل، وحُظِر المجلس الوطني الإفريقي. وبعد الإفراج عنه عام ١٩٦١ بدأ حركة مقاومة سرية اعتقل على أثرها مجدداً وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، زِيدت إلى السجن المؤبد بعد محاكمته بتهم أخرى.

أفرج عن مانديلا من دون شروط في ١١ شباط/فبراير ١٩٩٠ ليشغل منصبه كنائب رئيس للمؤتمر الوطني الإفريقي وأعلن عن وقف الكفاح المسلح بعد مباحثات مع الحكومة وانتخب بعد عام رئيساً للمؤتمر الوطني الإفريقي.

نال مانديلا جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٣، وانتخب رئيساً لجنوب إفريقيا في ١٠ أيار/مايو ١٩٩٤ وبعد خمس سنوات تخلى عن الحكم بعد انتهاء ولايته رافضاً تجديد ترشيحه لرئاسة الجمهورية مبتعداً عن القيادة ليسمح للآخرين بالنمو.

لم يغير مانديلا موقفه السياسي وهو سجين في جزيرة "روبن" وقد رفض العروض بالإفراج عنه مقابل التخلي عن الحياة السياسية.

عند قراءة السيرة الذاتية لمانديلا (الواقعة في أكثر من ثمانمئة صفحة) نكتشف الراحة النسبية وتوفر الحقوق الأساسية للسجين كالقراءة والكتابة والمراسلات وحرية التنقل ضمن أمكنة معينة..

فقد خصّص طعام حمية لمانديلا بسبب وضعه الصحي، وسمح له بمتابعة دراسته بالمراسلة للحصول على درجة الإجازة في الحقوق من جامعة لندن وكانت كتب الحقوق تصله عن طريق السفارة البريطانية. كذلك أعطي طاولة وكرسياً وكانت زنزانته تبلغ ثماني أقدام طولاً بسبع أقدام عرضاً ولها نافذة صغيرة ثبتت عليها قضبان تشرف على الساحة. وسمح لحاميه وزوجته أن يزوراه عدة مرات.. كذلك هناك صلوات يقيمها كهنة أيامَ الآحاد، ومشاركات أدبية بين السجناء خصوصاً أعمال شكسبير، ومن الألعاب الرياضية كان مسموحاً لهم بمباريات الركبي والكريكيت وكرة المضرب، وأنشأ السجناء حديقة صغيرة قرب الباحة وكان مانديلا يقضي أوقاتاً طويلة هناك.

وسمح للسجناء أيضاً بشراء آلات موسيقية والعزف عليها ومشاهدة أفلام قديمة غير سياسية.

× × ×

من اللافت للنظر أن مانديلا سجن نتيجة عنف واستمر مؤمناً بضرورة العنف المسلح والمقاومة الدموية حتى خروجه من السجن فهو سجين سياسي أكثر منه سجين رأي وموقف.

× × ×

يقول مانديلا: إنها مأساة أن تضيع زهرة أيام حياتك في السجن لكنك تتعلم الكثير ويكون لديك الوقت للتفكير ولتنأى بنفسك عن نفسك وتنظر إليها من بعد وترى تناقضات ذاتك.

× × ×

هل كان مانديلا شيوعياً؟ هذه إحدى التهم الموجهة إليه.. وقد كتب:

إن الشيوعيين فقط هم الذين كانوا مستعدين لمعاملة الإفريقيين معاملة البشر الأنداد، وهم الذين كانوا مستعدين ليأكلوا معنا ويتحدثوا ويعيشوا معنا ويعملوا معنا. إنهم الجماعة السياسية الوحيدة التي كانت مستعدة للعمل مع الإفريقيين لتحصيل الحقوق السياسية والموقع الاجتماعي. وفي الوقت نفسه يقول: أنكر بإصرار أنني كنت عضواً في الحزب الشيوعي في جنوب إفريقيا منذ عام ١٩٦٠ أو في أي وقت آخر.

× × ×

عندما احتفل مانديلا بعيد ميلاده الخامس والثمانين، رفض إطفاء الشموع في الحفل قائلاً: "إنني كرّست حياتي لإضاءة الشموع لا العكس".

وحين سئل إذا كان يعتقد أن التاريخ كان منصفاً بالنسبة له أجاب: "لا يعنيني التاريخ لأنه ليس حالة مجرّدة، بل إنه حالة معقدة وأحياناً صارخة، وأحياناً أخرى عقيمة. ما يعنيني هو الناس، أولئك الذين يفترض أن يعيشوا أفضل وبحرية".

الحرية كانت هاجسه في سنوات سجنه.. كيف يخون الإنسان نفسه حين يحطم حرية الآخر، وماذا تعني الحرية حين لا تكون للجميع؟!

كتب مانديلا لزوجته عندما سجنت:

"ربما تجدين أن الزنزانة مكان مثالي تتعلمين فيه معرفة ذاتك، حيث تراجعين بواقعية وانتظام تفاعلات عقلك ومشاعرك فلدى تقييم تقدمنا نجد أننا نميل إلى التأكيد على عوامل خارجية مثل موقع الفرد الاجتماعي، وتأثيره، وشعبيته، وثروته، ومستوى تعليمه... والتأمل المنتظم، نحو ١٥ دقيقة في اليوم قبل النوم قد يكون مفيداً جداً. ربما تجدين صعوبة في البداية في تحديد النقاط السلبية في حياتك لكن المحاولة العاشرة قد تؤتي أكلها، ولا تنسي أبداً أن القديس هو خاطئ لا يمل المحاولة".

× × ×

وأختم الكلام عن مانديلا بهاتين الجملتين اللتين كان يحبهما:

–أنا سيّد قدري.

أنا قبطان روحي.

–الجدران الأشد هولاً تلك التي تنمو في الذهن.

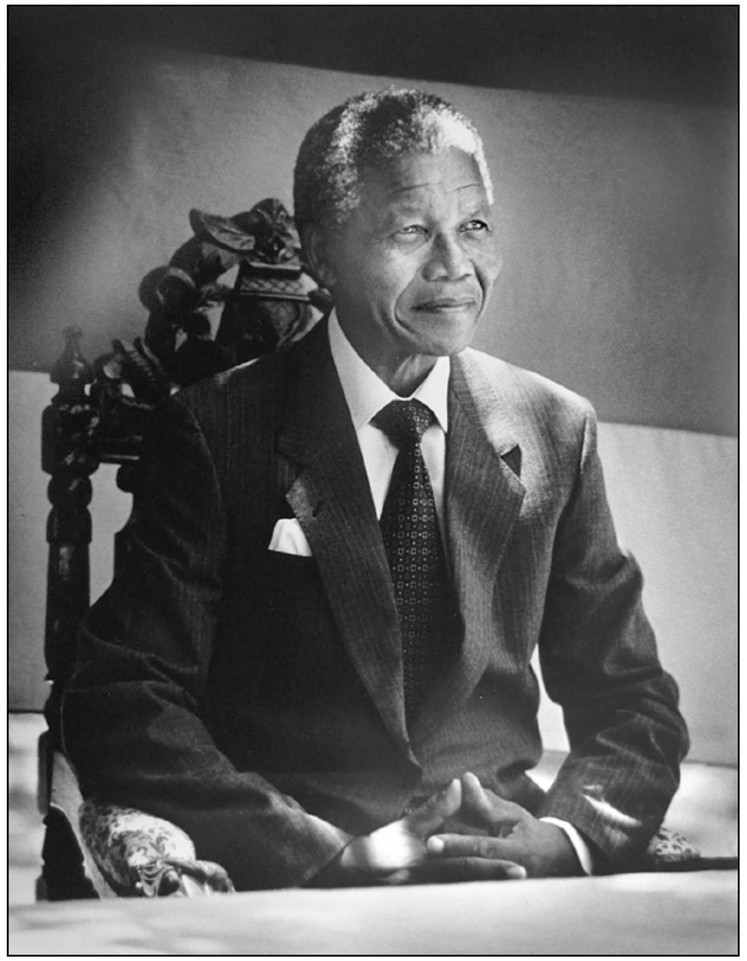

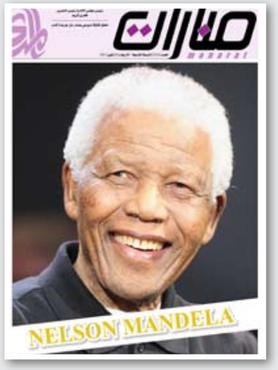

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التدقيق اللغوي
محمد حنون

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

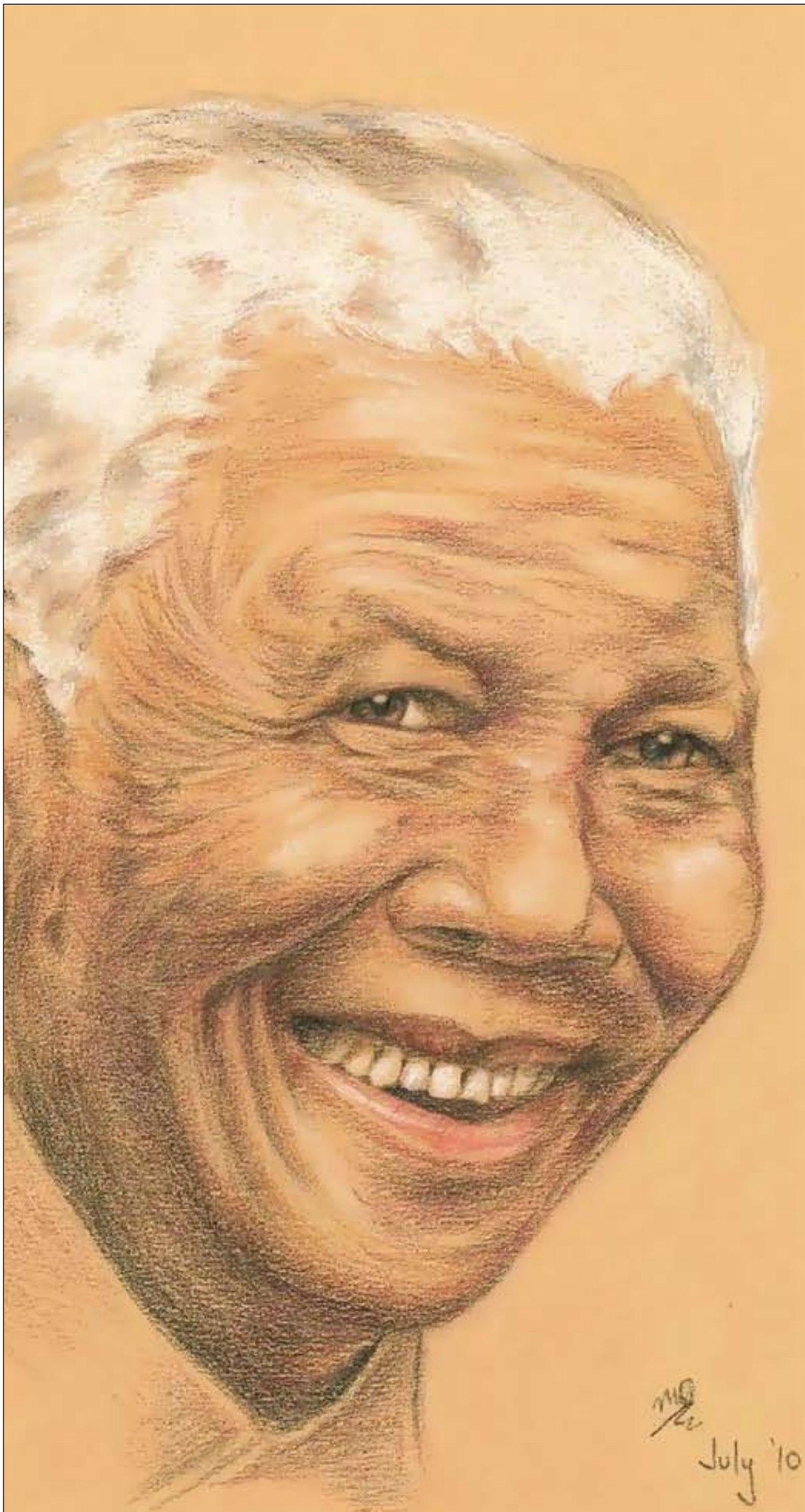

قصيدة تنقذ وطناً

علي حسين

التجربة السياسية لزعيم جنوب افريقيا نيلسون مانديلا تستحق من كل الساسة العراقيين ان يقرؤوها جيدا، فالرجل الذي امضى نصف عمره في زنزانة انفرادية، توقع المقربون منه ان خروجه من السجن يعني ان لحظة الثار قد حانت، لكنه لم يحقق لهم مبتغاهم ودعا الجميع الى نسيان الماضي مؤكدا ان: " الإنسان الحق هو ذلك الذي لايكرر خطا الظلم الذي ناضل كي يرفعه ".

يبدو الحديث عن مانديلا هذه الايام اشبه بالحديث عن حلم عاشه رجل في زنزانة ضيقة وحين اطلق سراحه عمل جاهدا على المحافظة على بلد متماسك بكل الوانه، كان الامر في البداية اشبه بالمستحيل، فالكل يشحذ سكاكينه، والكل يتهيا لحرب الانتقام، وكان امام العجوز الذي خرج منهكا من المعتقل خياران، الاول أن يبدأ حرب الانتقام ضد البيض الذين عذبوه لأكثر من ربع قرن، وحكموا مواطنيه الأفارقة بقوانين تساويهم بالحيوانات، والخيار الثاني ان يحافظ على امن وسلامة البلاد وروحها، فاختار الطريق الثاني فأزاح الأفارقة البيض من السلطة من دون أن يلغي مواطنتهم في بلد استقروا فيه منذ أكثر من ثلاثمائة عام إلى جانب السكان الأصليين ليفاجئ العالم بسياسة اليد الممدودة، وعقاب المخطئين بمحاكمات الاعتراف العلنية لتطهير النفس بديلا للانتقام والقتل.

مانديلا علامة التسامح والغفران في عالم يجنح الى التعصب والتحامل والعنصرية، استطاع أن يطوي صفحة سوداء ويفتح طريق المستقبل للمواطنين المتعددي الأعراق والأديان. وكانت مواقفه رمزا لهذا المستقبل حين شكل حكومته الأولى من مظلومين وظالمين.

التسامح والغفران يتطلبان إيماناً بأن الأفكار مثلها مثل الأشياء تتحول وتتغير، أما عدم التسامح والعجز عن الغفران فهما دليل تعصب وجمود،وبسبب مانديلا الذي عمم مفهوم التسامح فإن جنوب أفريقيا اليوم أهم وأكثر دول القارة استقرارا ونجاحا.

في كتاب جديد يحمل اسم "حوار مع نفسي"، وهي نصوص كتبها مانديلا البالغ اليوم من العمر ٩٢ عاما، يظهر الوجه الشخصي لهذا الرجل الذي تحول رمزا عالميا للمصالحة في القرن العشرين.

يكتب الرئيس الاميركي باراك اوباما، في مقدمة الكتاب تحية لحياة مانيلا "المناقضة للعبث وللاستسلام للقدر الشائعين في عالمنا". مضيفا ان" مانديلا عاش في غابة السياسة، وكان له نصيبه من الضعف الإنساني، وفيه العناد والكبرياء والبساطة والاندفاع، ووراء سلطته وقيادته الأخلاقيتين كان يخفي دائماً سياسياً متكاملاً وقد ارتكزت منجزاته العظيمة على براعته واتقانه السياسة بمعانيها العريضة الواسعة ".

في حوارات مانديلا نكتشف ان قصيدة من الشعر الهمت الزعيم الافريقي ليقاوم، القصيدة كتبها الشاعر الانكليزي وليام هانلي " ١٨٤٩-١٩٠٣" تقول كلماتها:

من آخر الليل الذي يضعني في كفنه
كما لو كنت في هوة سحيقة
من قطب لآخر، اشكر الآلهة
التي وهبتني نفسا لاتقهر،
حتى حين سقطت في قبضة الاسر
فلم اجفل، ولم اصرخ
رغم كل ما كان يعصف براسي
حين كنت ارى خارج هذا المكان
الغضب والدموع، يلوحان في الافق
تحت رعب الظلال، لكني بعد هذه السنين الطوال
لم اعد خائفا، وما زلت ابحث
ولم يكن مهما كيف كان الباب ضيقا
كما لم يكن يعنيني، كم كلفتني العقوبات،
فانا سيد قدري، وانا قائد روحي

من منا سيقرأ سيرة مانديلا جيدا ليتعلم ان السياسة هي فن المحافظة على الشعوب، لا فن التلاعب باقدار الناس؟!